رواية

أبو صابر

الثائر المنسي مرتين

تأليف : سلامة عبيد

مقدّمة

أبـو صابـر . . . بطـل مـن بقايـا السـيوف ، لا يـزال حيـا» . . . قصـة حياتـه اسـطورة إبـاء و ايمـان . . .

كان يتكلـم ، و كنـت أسـجّل حديثـه يومـا» بعـد يـوم . . . تـكاد تكـون كلـمات هـذه القصـة كلماتـه بنصهـا و الصـور صـوره بألوانهـا و أبعادهـا .

لـو كنـت قصّاصـا» لأبدعـت لـه نهايـة غـير تلـك النهايـة و لكنـي كتبـت هنـا مـا سـمعت و مـا رأيـت . . .

سـيختلف الأدبـاء و الأصدقـاء في تقييـم هـذا العمـل الأدبي ، فنـا» و لغـة و تأثـيرا» ، و لكنهـم يتفقـون جميعـا « عـلى أنهـا قصـة رواهـا ثائـر صـادق و كتبهـا قلـم آثـر أن يظـل صادقـا» . . .

سلامة عبيد

الفصل الأول

- أبو صابر . . .

- تفضلوا . . .

صوت خافت مرتجف يجيب ، و وقع خطوات متثاقلة يقترب .

و ارتفع صرير البوابة الخشبية المتهالكة حادا» متقطعا» ، و برزت من خلفها عينان متعبتان تحيط بهما تجاعيد رسمتها ريشة زمن قاس و ظللتهما ألوان قاتمة من الحرمان و الأرق و الانتظار المتعب الطويل ،

- تفضلوا . . .

و عادت تحاول الإسراع وهي تكرر :

- تفضلوا . . .

لم أتبين من ملامحها سوى عينيها ، فقد كانت تلف رأسها على عادة النساء الجبليات بمنديل سميك أبيض ، يرتمي على صدرها و كتفيها و ينساب على ظهرها حتى يكاد يلامس الأرض ، و يرتفع طرف منه لثاما» يغطي نصف وجهها ليلتف مرة ثانية فوق طربوش قصير لاصق بالرأس يكاد لا يتبينه المرء لولا استدارة ضيقة في قمته .

و بدت العجوز و هي تتعثر في خطاها و بأذيال ثيابها السوداء الفضفاضة التي تكاد تكنس الأرض ، بدت قصيرة منحنية تحت أعباء حمل غير منظور .

و دخلنا خلفها ، و بعد أن اختفت في داخل البيت ، باحة ضيقة طويلة يغطيها بلاط حجري بدائي يتلاصق و يتباعد بلا نظام و تظللها شجرة ضخمة من التوت الأبيض يمتطي أحد غصونها طفل حافي القدمين بدا شاحبا معروقا» ، توقف على ما يبدو عن هز أغصان الشجرة عندما فتحت البوابة ، فقد كانت ثمار التوت و أوراقه متناثرة فوق الباحة و على أطراف حصير عتيق كانت تتخلله في يوم من الأيام بعض الخيوط الملونة .

و لم تعر الدجاجات القليلة أي اهتمام لوقع أقدامنا فقد كانت منهمكة بالتهام الثمار المنتثرة فوق البلاط البازلتي و بين جنباته .

و توقفنا قليلا تحت دالية فتية ترتفع وتمتد فوق أعمدة رفيعة من الخشب و قطع من الحديد متفاوتة في أطوالها يتخللها جميعا» أسلاك من شريط أو أعواد قصب ، و كانت عناقيد الحصرم تتدلى ضئيلة متباعدة ، و قد ارتسم بعضها على صفحة المياه الصافية في خابية جديدة ضخمة .

- تفضلوا . . . أهلا و سهلا

و كان الصوت هذه المرة أجش متقطعا» تتبعه همهمة خافتة كأنما هو يصدر من جنبات كهف بعيد و دخلنا غرفة بدت مظلمة عندما كنا نسد بأجسامنا بابها المنخفض الضيق في حين تراكم في أرض النافذة الوحيدة الضيقة وعلى جنباتها شتى الأدوات المنزلية الصغيرة و بعض علب التبغ و الكبريت .

كان واقفا» في فراشه يرتجف و قد اسند يده اليسرى الى الجدار ، وهو يجهد في أن يتقدم ليصافحنا

هذا هو أبو صابر . . .

بيجاما بيضاء متهدلة ، تخرج من كميها كفان ضئيلتان دقت أصابعهما و استطالت و بدا جلدهما المتجعد و كأنه يغلف عظامهما مباشرة ، و يرتفع بين منكبيها وجه شاحب معروق يغطيه شاربان كثيفان أشيبان و شعر خفيف ناعم تلمع في إطاره الأغبر عينان تقرأ في نظراتهما صراعا» صارخا» بين المرارة و التجلد و اليأس و الطمأنينة ، و حاول من جديد أن يتقدم في حركة استجمع لها كل ما تبقى لديه من قوة و عزيمة ، و خيل إلي أنها كانت أكثر من حركة ترحيب لقد كانت تحديا» للمرض و الشيخوخة و الساق التي بدأت تتصلب .

كنت أتردد عليه بين الحين و الحين و كان يلقاني كما يلقى زواره القلائل بكل ترحيب و بشاشة يقدم لهم بنفسه الشاي و التبغ و السكاكر و يروي لهم بكل أنس طرائف أخباره أما اليوم فإنه لم يهمل شيئا» من بشاشته و ترحيبه إلا أنه بدا أكثر اهتماما»بمغالبة عجزه بكبرياء الذئب الجريح .

و أجلسناه في فراشه ، و هو يلهث لهاثا» خافتا» وقد تصببت قطرات العرق على وجهه الموميائي .

اسند ظهره إلى عدد من المخدات القصيرة النظيفة الملونة فوق فراش رقيق و غطى ساقيه بشرشف قطني امتد على قسم من سجادة محلية ضيقة ، و جلسنا حوله بين متكئ على مخدة صوف خشنة أو متربع فوق حافة فراش تمتد تحته حصير أو بساط من شعر الماعز و قد نسينا أن نخلع أحذيتنا في مدخل الغرفة على عادة أهل البلد ، و لا أدري إذا كان ذلك لتسرعنا في إسناد أبي صابر و هو يرتجف واقفا» مرحبا» ، أو لاعتقادنا بأن مثل تلك العادة صالحة لفصل الأمطار و الوحول .

و بدأت أحاديث مجاملة ، و انطلق الصوت الأجش المتقطع :

- تاي يا عيال . . .

و كانت طقطقة (البريموس) و هدير النار قد بدأ منذ اللحظة التي دخلنا فيها الغرفة . و لم نستغرب لفظة التاي منه وقد نسي اللفظة البلدية ((شاي)) و اعتاد أن يلفظها هكذا طوال ربع قرن .

و دق الباب المشترك بين الغرفتين دقات خفيفة و برزت صينية صغيرة فوقها بضعة أقداح من الشاي القاتم فقد كان أبو صابر لا يستسيغ الشاي إلا على الطريقة المغربية :

- فرنك تاي فرنك سكَّر .

و توقفت اليد الممسكة بالصينية ، فأدركت أن الولد لا يزال يهز شجرة التوت و أن المرأة تحجم عن الدخول إلى غرفة فيها أغراب لا تعرفهم .

تناولت الصينية و سمعت دعاء» خافتا» يتردد داخل الغرفة المجاورة الأشد ظلمة ، و اعتذارا» متلجلجا» من الشبح المستند إلى الوسائد الملونة .

و للمرة الثانية دق الباب المشترك و توقفت بين مصراعيه صينية واسعة زينت جوانبها أوراق خضراء وانتصب فوقها هرم من ثمار التوت البلدي ، و إلى جانبه طاسة مملوءة بالماء الصافي .

و بـدأت الأيـدي تمتـد إلى الثـمار بـين ناضجـة رخـوة أو متماسـكة لتجيلهـا في الطاسـة التـي راح ماؤهـا يـزداد اصفـرارا» كلـما امتـدت إليـه يـد بثمـرة جديـدة .

و ألـح أبـو صابـر في اعتـذاره عـن القهـوة المـرة ، فهـو لم يعـد يقـوى عـلى تحميصهـا و دقهـا في الجـرن الخشـبي المزخـرف الـذي بـدا منزويـا» كئيبـا» تنتصـب حولـه مجموعـة مـن الـدلال النحاسـية البراقـة في حـين ارتفـع مهبـاج ممشـوق صقيـل معلقـا» في ركـن مـن أركان القنطـرة .

و رحـت بـين الحـين و الحـين أنقـل النظـر بـين السـقف الحجـري و الجـدران المغطـاة ببعـض الزخـارف مـن الـتراب المجفـف و بكثـير مـن الصـور ألصـق أكثرهـا ليخفـف مـن تجهـم الطـين و ظـلال القناطـر الحجريـة الضخمـة .

وكنـت اسـترق النظـر إلى إطـار صغـير بـلا زجـاج يحيـط بصـورة لشـابين بـدا أحدهـما في لبـاس الجبـل التقليـدي ، سـترة واسـعة الأكـمام و قنباز أبيـض مخطط و قد استرسـل شـعره حتـى الكتفـين و ارتفـع الشـاربان معقوفـين فـوق شـفتين مضغوطتـين ، أمـا الثـاني فقـد كان يلبـس طربوشـا» فـوق بذلـة عسـكرية كثـيرة الأزرار و كان واضحا» أنـه يافـع و أنـه يحـاول أن يعطـي لقسـمات وجهـه صلابـة الرجـال الجبليـين و صرامـة نظراتهـم .

و اسـتطعت أن أقـرأ العبـارة المكتوبـة تحـت الرسـمين فقـد كان ضـوء البـاب ينسـكب مـع الأصيـل مبـاشرة عـلى ذلـك الركـن مـن الجـدار ، و كانـت الأحـرف باهتـة غـير أنهـا كانـت كبـيرة واضحـة :

-هاذه صورت حمود و حمد .

حمود و حمد. . .

و أحـس أبـو صابـر أن الصـورة أثـارت اهتمامـي ، رغـم كل محاولـة منـي للتسـتر عـلى ذلـك الاهتـمام ، فتنهَّـد و مسـح مـن عينيـه دمعـة كادت تتدحـرج عـلى خـده الناتـئ :

- أسـتاذ ! أنـت لا تعـرف حمـود ، حمـود قتـل في قلعـة راشـيا , عـلى سـلم القلعـة قـدام الثـوار , و بقـي حمـد , بقـي للعـذاب و المـرارة , ليسـلي زواره بذكريـات المنـافي و السـجون . . .

و مسح الزبد عن شفتيه , و أشعل سيجارة كانت قد انطفأت بين أصابعه و تابع و هو يغص في كل مقطع .

- ماذا بقي منك يا حمد . . .

و قطع تنهداته دخول الطفل الشاحب المعروق الذي كان يمتطي شجرة التوت .

- سلم يا صابر . . . قل أهلا» و سهلا» . . .

وردد الولد بصوت جهوري شجاع : أهلا» و سهلا» .

ثم تقدم , يضرب بقوة يشد اليد الممدودة لمصافحته و يرفعها إلى شفتيه ثم رأسه .

- لا يا صابر . . . سلام شباب ! . . .

قلت ذلك و شددت على يده مصافحا» و أحسست و كأنه ارتاح إلى هذه الطريقة الجديدة في السلام و لكن دون أن يستطيع التغلب على انتظاره للقبلة على خده أو رأسه .

- مخدومكم صابر , و عندي غيره ثلاثة من حمد الله . . . و رفع كفه إلى شفتيه ثم إلى جبينه و تابع . . .

من كان يحلم أنني أعود إلى الوطن حيا» , ويصير عندي أولاد , بعد عشرين سنة من المنفى في فرنسا وفي الغويان , من كان يعتقد أن أمي تضمني إلى صدرها و أنا في السجون أموت مرة كل يوم . . .

و توقف ينفث دخان سيجارته في جو الغرفة الذي بدأ يتراقص في حزم أشعة شمسها خليط من سحب الدخان الشفاف و ذرات الغبار المتدافعة :

- مالك و مال الماضي يا حمد . . . أهلا» و سهلا» .

مالي علم إنك بخيل يا بو صابر . . . حدثنا . . . إن قصة حياتك جزء من طفولتنا كانت حديث سهراتنا . . .

- ركبوه على دبابة حديد , مربط بالشاش الملطخ بالدم , حراس عن يمينه و حراس عن شماله و المسدس فوق رأسه , ناس قلائل شاهدوه , كلهم عزّ عليهم أن يأخذوه أسيرا» . . و لكن الثوار كانوا بعيدين . . . في الجبال . . . فوق . . .

- و كنا نتساءل , و الريح الباردة تلسع ظهورنا من تحت رواق الخيمة :

- قتلوه ؟ . . . لا . . . لا . . . حمد بطل . . . سوف يرجع . . . و سنلاقيه على المزرعة بالحداء . .

و بكى أبو صابر بكى مثلما تبكي النساء و تمتم :

- و أنا أيضا» كنت أعرف أنني سأعود . . . و عدت , عدت و لكن لم يعرفني أحد , أمي وحدها فرحت بي , الناس نسو ابو صابر يا أستاذ , نسوه .

الفصل الثاني

كان عباس ذياب معلم عمار يساعده في عمله ولده حمود , شاب يحمل الحجارة على ظهره و يضرب بالمهدة و الشاقوف بهمة و حماسة , و في المساء يعلق ثياب العمل في الوتد الخشبي البارز من الكوارة , و يرتدي ثيابه الحريرية و يدهن شعره المسترسل بالزيت و العطر , و تبدأ سهرات الربابة و المجوز حتى ساعة متأخرة من الليل .

أما حمد , أخو حمود , فلم يكن يبدي أي رغبة و حماسة لهذه الطريقة في الحياة فهو شاب صغير , يحلم بالسيف و البندقية و الفرس , و تستهويه بذلات الجندية بل الجندرمة ذات الازرار النحاسية الواسعة البراقة و القلبق الاسود و البارودة (العصملية)الطويلة و الجزمة الضخمة السوداء الشديدة اللمعان , و يبرز منها مهماز كأنه من فضة .

و يبدو أنه مصمم على أن يكون جنديا» أو أن لا يكون شيئا» في هذه الحياة .

و حاول أبو حمود أن يلوح له بالعروس . فقد يحس بمسؤولية البيت و تخف مع الزمن حماسته لصناعة الحرب , و لم يكن الأب زاهدا» في الفروسية

فهو يجيدها . فقد أتقن , شأن أترابه جميعا» , ركوب الخيل و هو يدرس أجيرا» في بيادر البلدة , و تعلم السباحة مع أنداده في المطخ الواسع و من ثم في (السورية) حيث يقفز السباحون الصغار من النافذة المرتفعة أو من الحاكورة الأكثر ارتفاعا» , يسترون عوراتهم بأيديهم لا يرفعونها حتى يضربوا بأقدامهم المضمومة سطح الماء الأخضر الآسن , في حين يتسلق بعضهم الجدار المرتفع ليتمرغ في التراب الناعم الدافئ وليقفز من جديد , غير مكترث بالنسوة القلائل اللواتي كن يهبطن عشرات الدرجات الحجرية البدائية الضيقة المرهقة لتناول بعض الماء في جرار مخروطية من التنك , بينما ترفع رفيقاتهن الجرار فوق أكتافهن و يصعدن الدرج الرهيب في جهد و حذر واضحين .

أما استعمال البندقية فقد كان شائعا» , كل بيت فيه بارودة وفي كل عرس تحرق عشرات الأمشاط , و إذا صاح المفزّع حمل كل واحد سلاحه و انطلق يملأ الفضاء نارا» و بارودا», و في مناسبات كثيرة يتسابق الرماة في محاولة لقطع قضيب رفيع ينصب في السهل الواسع أو مسلة مغروسة في زاوية من زوايا السطح .

كان أبو حمود يجيد الفروسية و يتعشقها و لكنه ما كان يرغب أن تكون الفروسية راتبا» يقبض آخر الشهر , فهو يتحاشى مثل أترابه من أجاويد ذلك الزمن أن يدخل بيته مال من الحكومة , و مال الحاكم في نظرهم محرم .

و استعان الوالد بالأم :

- حط عينك يا حمد , أبوك لا يعزّ عنك شي . . .

و ازداد الشاب عنادا» .

- العروس بعد البدلة يا أمي .

و أفاقت الأم ذات يوم لتجد فراش حمد خاليا» , و لم تستغرب فقد كانت واثقة من انه لن يبقى في البيت عالة على والده و أخيه , و أدركت أنه سيقوم بمغامرة و أنه لن يستقر حتى تلمع الأزرار الكبيرة الصفراء على صدره .

أحست بالوحشة لفراقه ولكنها كانت مطمئنة مستسلمة للقدر استسلاما هادئا» , و اكتفت بالدعاء له و هي تنتظر بكل لهفة و شوق بعض أخباره .

و ذات يـوم فتحـت الخويخـة في بوابـة أبي محمـود و أطـل منهـا طربـوش أحمـر و كانـت أم حمـود تنـشر الغسـيل فـوق بعـض الحجـارة المتناثـرة في زاويـة الباحـة , فرفعـت لثامهـا في حركـة خاطفـة و عضـت عليـه بأسـنانها و خنقـت صرخـة ذعـر مـا لبثـت أن عقبتهـا عبـارات الترحيـب المتدافقـة و قـد سـقط اللثـام عـن وجههـا و راحـت تغمـر القـادم الغريـب الـزي في لهفـة أم .

و شـعرت أم حمـود أن الجـيران و الجـارات و الأولاد و البنـات قـد تجمعـوا أمـام بوابـة الـدار و تجـرأ بعـض الصبيـان عـلى اقتحـام الباحـة بينـما أسرعـت بعـض النسـوة إلى السـطوح المطلـة عـلى الباحـة ليشـهدوا الشـاب الغريـب الـزي , الشـديد الغرابـة :

طربـوش أحمـر طويـل واسـع , و بذلـة عسـكرية تلمـع عـلى صدرهـا أزرار كبـيرة صفراء و يشـد خصرهـا حـزام عريـض مـن الجلـد اللامـع وحـذاء أسـود ضخـم مرتفـع تـدق مسـاميره الكبـيرة الأرض دقـا» , ولفافـات سـمراء تشـد السـاقين في طيـات متعاقبـة مرصوصـة .

و عندمـا عـاد أبـو حمـود مـن عملـه , و هـم بفتـح الخويخـة عبقـت بأنفـه رائحـة المغربيـة الشـهية و شـاهد أمـام البوابـة ريـش الديـك المزهّـر الوحيـد عريـس الدجاجـات فـأدرك أن في البيـت ضيفـا» غاليـا».

قبـل أبـو محمـود ولـده بحنـان متحفـظ , فهـو لا يريـد أن يشـجعه و لكنـه لا يسـتطيع أن يكـون قاسـيا» عليـه , و إن هـو غـادر البيـت بـدون اسـتئذان و لبـس البدلـة العسـكرية دون موافقـة والديـه .

كان فاتـرا» و لكنـه مـع ذلـك ظـل يختلـس نظـرات الإعجـاب و الاعتـزاز إلى ولـده الشـجاع المعتـد بنفسـه .

و أحـس الوالـد أن فرصـة التلميـح بالعـروس أصبحـت ممكنـة فـأسر إلى الأم , التـي أسرعـت إلى ولدهـا تختـلي بـه :

- حط عينك يا حمد , كلنا قدامك .

ابتسم حمد هذه المرة .

و أحسـت الأم بنشـوة الفـرح تـسري في عروقهـا و كادت تزغـرد . ولكـن كيـف تزغـرد وهـي لا تعـرف مـن يعنـي حمـد بهـذه الابتسـامة .

فعادت تطلب إليه أن يسمي .

و نطق حمد باسمها بحياء و تلعثم .

و بـدت في عينـي الأم نظـرة ارتيـاح و فـرح : حمـد لا يخيـب الظـن , لقـد أحسـن الاختيار .

- اتكلنا على الله .

و طبعـت الأم عـلى جبـين ولدهـا قبلـة خاطفـة . . . و بـدأت وشوشـات الحـي .

- فلانة على حساب فلان .

- يستاهل . تستاهل هي .

أهلهـا لا يزوجـون الطربـوش الأحمـر . الطربـوش الأحمـر مـا هـو عيـب , الشـاب مـن أنبـل الشـباب , صحيـح أنـه مـا هـو غنـي , و أن عائلتهـم مـا هـي مـن عائـلات البلـد الكبـيرة , لكنهـم رجـال أصحـاب نامـوس .

و أحسـت العـروس بتعلـق غريـب بالخاطـب الشـاب , فهـي تعرفـه مـن قبـل فقـد تحدثـت إليـه عـلى طريـق (الكـوم) في مواسـم الـورد , و في حقـول الحصاد وفي مناسـبات كثـيرة غيرهـا , و كان يسـترعي انتباههـا أمـا الآن فإنهـا بـدأت تشـعر بخفقـان قلبهـا و تـورد وجنتيهـا عـلى غـير مـا عهـدت مـن قبـل و أحسـت كلـما غمـزت رفيقاتهـا مـن ((العسـكري)) بأنَهـا كانـت تـزداد اعتـزازا» بالطربـوش الأحمـر و الأزرار الكبـيرة الصفـراء .

أمـا هـو فقـد كان يبادلهـا اهتمامـا» باهتـمام و شـوقا» بشـوق و أحـس بالـصراع الخفـي بـين حنينـه إليهـا و بـين تصميمـه عـلى أن يظـل جنديـا» .

و أخـذ يتحـرى مـن أوضـاع رفاقـه في الخدمـة بـشيء مـن الحـذر و الحيـاء , علّـه يسـتطيع أن يوفـق بـين العـروس و بـين البذلـة .

و أحس بالطمأنينة عندما تأكد لديه أن أكثر رفاقه متزوجون وأن راتب المتزوج هو دائما» أكبر من راتب مثيله العازب , و أنه يسمح لهم بأن يعودوا إلى بيوتهم ليلتين أو ثلاثا» في الأسبوع , و أن للعسكريين تعاونية تقدم لهم المواد الغذائية و للملابس و الكماليات الصغيرة بأسعار متهاودة .

و هكذا بدأ يحس بالسعادة تغمر نفسه .

و بالغد المشرق ينتظره باسما» , غنيا» بالأمل .

و من ثم أخذ يزداد حماسة لمهنته الجديدة .

* * *

ولم يكن حمد ذياب جنديا» نظاميا» في كتائب جيش الشرق الذي بدأت فرنسا بتشكيله في سورية عقيب ميسلون و الذي كان يضم عددا» كبيرا» من الشباب السوريين و اللبنانيين العاطلين عن العمل والذين خربت بيوتهم المجاعات و الحروب و المصادرات أو الذين تستهويهم الحياة العسكرية فقد كان صغير السن لا يستطيع تحمل أعباء الجندية الشاقة لذلك ألحق بكتيبة التموين و خصصت له عربة يجرها زوج من البغال الضخمة .

كان حمد واضح الاعتزاز بعربته ذات العجلتين العاليتين و كان عندما يمسك بأعنة البغلين وهو جالس على المقعد المرتفع , لا يهتم كثيرا» بالسوط المعلق إلى جانبه فقد اعتاد أن يكتفي بنترات صوته و بتحريك السيور الجلدية بعنف أو بهدوء حسب متطلبات السرعة أو البطء .

و كثيرا»ما شعر حمد بأن الناس في طريقه بين المعسكر و المدينة ينظرون إليه نظرات غريبة , ولم يكن بادئ الأمر يهتم لنظراتهم , ولكنه بدأ مع الزمن يتساءل :

- لماذا ينظرون الناس إلي هكذا . . . صحيح أن الطربوش يكاد ينزلق حتى أذني . . . و أن البذلة تكاد تكفي لشخص آخر معي . . . و لكن . . .

و أحس حمد أن زيه المستغرب و حداثة سنه و ضآلة حجمه بالنسبة إلى العربة الضخمة أحس أن ذلك يسترعي الانتباه إلا أنه في أعماق نفسه راح يفتش عن سبب آخر .

و بـدأ يتكشـف شـيئا» فشـيئا» سر النظـرات الغريبـة التـي كان بعـض النـاس يرمونـه بهـا .

فقـد كانـت المدينـة مـن حـين إلى حـين تضطـرب فيمنـع الجنـود مـن الاقـتراب منهـا و يحجـز عليهـم في معسـكراتهم , و لا يسـمح إلا لمفـارز مـن السـنغاليين و الملغـاش للقيـام بدوريـات في أطـراف المدينـة و أحيانـا» لا يتـورع قوادهـم عـن التغلغـل بهـم نحـو المدينـة وعندئـذ تقفـر العاصمـة الكبـيرة ولا يسـمع في الشـوارع إلا وقـع أحذيتهـم ذات المسـامير الضخمـة و بعـض الطلقـات الناريـة تـدوي رهيبـة متقطعـة و في كثـير مـن الأحيـان كانـت هـذه المفـارز تتعـرض في بعـض المنعطفـات أو الأحيـاء المغلقـة أو بالقـرب مـن بعـض المـدارس إلى مضايقـات , هتافـات معاديـة و قـذف حجـارة , و تظاهـرات تتفـرق هنـا لتجتمـع هنـاك .

و كان حمـد , عندمـا يتـاح لـه أن يصـل بعربتـه إلى سـوق الهـال ليحمـل منـه الخضـار و الأرزاق إلى المعسـكر , كان يسـمع مـن حـين إلى حـين عبـارات و وشوشـات خيـل إليـه بـادئ ذي بـدء أنهـا ألغـاز , أو اصطلاحـات تجاريـة , و لكنـه مـا لبـث أن بـدت الأمـور تتجـلى لعينيـه و ذهنـه أكـثر وضوحـا», فلقـد بـدأ يعـرف أن المدينـة تكـره العسـكر ، و أن الاضطرابـات التـي تقـوم فيهـا مـن وقـت لآخـر مـا هـي إلا بسـبب وجـود أولئـك الجنـود في المعسـكرات المحيطـة بدمشـق .

و لم يحـاول أن يسـأل عـن أسـباب هـذا الكـره و دوافعـه , فقـد أحـس في أعـماق ذاتـه أن مثـل هـذه الأسـئلة لا تطـرح عـلى أنـاس لا يعرفهـم و لا يعرفونـه .

و جـرب أن يتصـل ببعـض أبنـاء بلـده القادمـين مـن الجبـل ولكنـه قلـما كانـت تتـاح لـه فرصـة الوصـول إلى حـي الميـدان و بـاب الجابيـة حيـث يـترددون , أمـا المنطقـة المطلـة عـلى طريـق بـيروت و معسـكرات المـزة فلـم تكـن تثـير فضولهـم و لم يكـن هنـاك أي عمـل أو مصلحـة تحملهـم عـلى ارتيادهـا .

و أخـذ يربـط بـين حادثـة أدهـم خنجـر منـذ سـنتين و اضطرابـات المدينـة و كرهها للعسـكر المحيطـين بهـا , فقـد كان في السـويداء عندمـا سـيق مـن القريـة إلى القلعـة تحـت حراسـة مشـددة شـخص غريـب عـن الجبـل , قيـل أنـه مـن جبـل عامـل , و أنـه رئيـس عصابـة حـاول اغتيـال الجـنرال في جهـات القنيطـرة .

و أنه جاء لاجئا» أو ضيفا» على دار سلطان في القرية و أن الباشا كان غائبا» آنذاك , و عندما علم بالأمر , عز عليه كثيرا» أن تلقي السلطة القبض على ضيفه و حاول أن يتوسط الأمر و لكن الحاكم لم يقبل إلا بنقل الأسير بطائرة إلى دمشق .

و ثأر سلطان لأدهم و لشرف داره , رابط مع بعض خيالته و هاجم ثلاث مصفحات أحرق اثنتين منها و قتل الليوتنان الفرنسي و انسحب إلى الجنوب نحو الأردن مع عياله و بعض رفاقه و مواشيه , تاركا» داره و غلاله طعما» للنيران , و تذكر حمد أن حاكما» فرنسيا» قد حلّ في السويداء محل الحاكم المحلي , و أن الناس أيضا» في الجبل بدأت تتذمر من قسوة الحاكم و استبداده .

و أخذ حمد يصل إلى استنتاجات شخصية بدأت تشغل باله و تقلق نومه .

فلماذا تظل المدينة الكبيرة دائمة الاضطراب و هي تبدي كرهها للجنود .

و خيل لحمد أن المدينة تكره العساكر بسبب عوامل دينية أو عنصرية و لكنه لم يقبل بهذه الفرضية , فالجنود أكثرهم مسلمون من البلاد و من المغاربة الشديدي التدين و هم خليط من اللهجات و الأجناس و في المدينة أيضا» لهجات كثيرة و أجناس كثيرة بدو و حضر و أرمن و أكراد و شراكس . . .

و تمكن حمد بالفطرة أن يدرك تدريجيا» أن المدينة الكبيرة تكره الجنود هؤلاء الذين يخدمون دولة أجنبية دخلت البلاد بالقوة و فرضت عليها حكاما» غرباء و أنظمة لم تألفها و بدلت الذهب بأوراق ملونة . . .

و مع الزمن بدأ يحس بأن حماسته للمهنة الجديدة بدأت تخف و تطلعه إلى العودة يزداد يوما» بعد يوم .

و جرب أن ينسب هذا الشعور الجديد إلى شوقه لأهله و للعروس في محاولة منه لإذكاء الهمّة التي بدأت تفتر و الآمال التي بدأت تنكمش , إلا أنه لم يجد في هذه المحاولة تعزية , و لم يلبث أن أقنع نفسه بأن هذا الشعور أشد عمقا» و أقوى من عاطفة شوق أو حنين لمسقط رأسه و أخذ يفكر فعلا»

و يحدد لنفسه الزمن الذي يستطيع أن ينهي فيه ارتباطه مع الجيش بحجة أو بأخرى و أحس أنه سوف يقوى على اندفاع الشباب و طموحه فلا يوقّع عقد التطوع المقبل كجندي محترف .

و شعر بالطمأنينة لهذا القرار و أخذ ينتظر نهاية العام و هو يغالب بقايا نزعات في نفسه تعكر عليه بين الحين و الحين هدوءه و استقراره .

و راح المتطوع الصغير منذ أوائل الصيف ينتظر نهاية العام ليضع حدا» لهذا الاضطراب النفسي الذي بدأ يؤرجحه ذات اليمين و ذات الشمال و يرسم أمامه المستقبل في صور متناقضة مشوشة مؤرقة , غير أنه لم يكن يعلم بأنه كان على أبواب مغامرة طويلة مثيرة قاسية .

فقد تردد ذات أصيل في المعسكر بوق التجمع , على غير عادة , فتراكض الجنود و هم يتحسسون أحزمتهم و أزرارهم و يضربون أحذيتهم بقطعة قماش أخرجوها من جيوبهم في محاولة لنفض ما علق على تلك الأحذية من غبار و اصطفوا في رتل أحادي طويل بعد أن تلمسوا طرابيشهم الحمراء المغضنة و وقفوا وقفة الاستعداد , بلا سلاح .

و خاطبهم القائد بلا مقدمة :

- غدا» صباحا» تنطلق قافلة التموين إلى بيروت لنقل الأرزاق , أسلحتكم معكم . مفهوم ؟ و ضرب الرجال الأرض بأقدامهم ضربة قوية واحدة , دون أن تهتز لهم شفة أو جفن و انصرفوا مسرعين في شبه فوضى و هم يصرخون صرخات فرح مكبوتة .

كانت بيروت بالنسبة لمن يعرفها منهم مجموعة من الذكريات يزيدها الزمن و البعد تألقا» و حلاوة , أما الذين لا يعرفونها فقد فجر هذا النبأ المفاجئ تلهفا» عارما» بدا على أسارير الرجال و في وثباتهم الخفيفة المرحة .

أسرع حمد إلى الإسطبل يتفقد بغليه و عدتهما و طعامهما , ومن ثم انطلق إلى عربته يحمل في يده علبة أخذ يتناول منها في إصبعه شيئا» أسود لزجا» و يدهن به محور العجلة .

و عندما اطمأن إلى أن كل شيء جاهز , قفل راجعا» إلى مهجعه و تناول بندقيته الافرنسية الطويلة , و راح ينظفها و يلمعها بكل هدوء ثم عاد إلى ذخيرته يتفقدها و إلى أمتعة نومه يتأكد من لياقتها , فقد أخبره رفاقه من قبل أن بيروت هي على ثلاث أو أربع مراحل من دمشق .

و عندما دق البوق في المعسكر معلنا» إطفاء الأنوار كان حمد لا يزال في ثيابه الرسمية و خيل إليه أن ينام دون أن يبدلها , إلا أنه عاد فأسرع يخلعها , و ألقى برأسه على مخدته الخشنة و لف جسمه ببطانية مزدوجة رغم بشائر الصيف , و قد علمته التجربة أن ليالي المعسكرات المنتشرة فوق روابي المزة تزداد في الهزيع الأخير برودة شديدة الإيذاء . و حاول أن يغفو .

أغمض عينيه و مد ساقيه في حركة استرخاء , مصطنعة , ولكنه بدلا» من أن يستسلم للنوم استسلم إلى خيالات و صور متعاقبة متدافعة , مشوشة حينا» واضحة أحيانا», ترتسم فيها بعض أحداث الماضي , و تختلط في أكثرها رؤى مستقبل مترجرج مثلما تتراءى أضواء مدينة غريبة بعيدة في غلالات الضباب الدائم الحركة .

لم تكن هي الليلة الأولى التي ينتابه فيها الأرق , إلا أنه أحس أنه خير له أن يفتح عينيه و يكوم جسمه الناحل و ينتظر تباشير الصباح بدلا» من أن يظل يرهق نفسه في التقلب من جنب إلى جنب علّه يجد في هذه الوضعية أو تلك سبيلا» لإغفاءة مريحة .

و كان المهجع الكبير , على غير عادته من السكون الرهيب , فقد بدا واضحا» أن قسما»من الرجال يغالبون الأرق , فقد كانت الأسرة الحديدية الضيّقة تصر بين الفترة و الفترة عندما يتقلب الجسم الممدد فوقها من جنب إلى جنب .

و قبل أن يدق بوق الاستيقاظ , كانت الحركة قد دبت في المهاجع و أخذت قعقعة السلاح الخافتة و وقع الأحذية الضخمة و همهمة الجنود تسمع , و من ثم تدافع الرجال نحو عرباتهم و بغالهم يسابق بعضهم بعضا» و في عيونهم حمرة من أرق و في حركاتهم تثاقل من عياء .

و اصطفت العربات الفارغة إلا من بعض الزاد و الأغطية بسرعة مذهلة و وقف كل واحد متشبثا» بعنان بغله بيد و ممسكنا» بالأخرى بندقيته و قد تدلى على جانبه غمد لحربة طويلة .

كان التفقد طويلا» مملا» , و ربما بدا كذلك , و لكن الأمر بالمسير ما عتم أن دوى فتحركت القافلة الطويلة ببطء إلا أنها ما لبثت أن سارت بشيء من السرعة و النظام يواكبها ضابط و بعض ضباط الصف فوق خيول مهجنة و سيوفهم تلمع تحت ضوء الشمس التي بدأت تغمر بأشعتها رؤوس التلال .

و سارت بشيء من التثاقل سيارتا شحن إحداهما في المقدمة و الثانية في المؤخرة و فيها عدد من الجنود يدوسون بأحذيتهم الغليظة أكواما» من الخيم الصغيرة .

كانت التلال العالية الجرداء تنتصب حادة موحشة على جانبي القافلة إلا أن وشوشة النهر حينا» و هديره أحيانا» و حفيف أوراق الحور و الصفصاف و المشمش كانت تضفي على الجو شيئا» من البهجة في حين كان بعض الفلاحين في بساتينهم أو في طريقهم إلى المدينة يرددون أبيات العتابا يقطعها بين الحين و الحين صوت يحث الدابة على الإسراع .

و سمح للجنود بالتدخين و الغناء , فانطلق دخان السجاير أزرق شفافا يتلاشى في الفضاء الصافي اللامتناهي , و اختلطت أغاني الشعوب اختلاطا» مثيرا» متناثرا», فقد كان الرجال من أجناس و مناطق شتى , من الهند الصينية و شرق افريقيا و غربها و شمالها و من فرنسا و سورية و لبنان .مجموعة من البشر كانت في كتائب التموين أكثر تعددا» في أجناسها و مذاهبها و أوطانها و ألسنتها و أشد تنافرا» في قاماتها و لون بشرتها و قسمات وجوهها , و أعمق تناقضا» في أخلاقها , و مشاربها , إلا أنها كانت جميعا» تنقل الأرزاق و المؤن لجيش الشرق , في زي و نظام عسكريين , و لم يستطع إلا أقلهم أن يرتفع بتفكيره عن المستوى المادي للحياة اليومية فقد كانوا شبان فقراء أميين في بلاد غلبت على أمرها فالتمسوا العيش متطوعين أو أُرغموا على الخدمة بموجب قوانين التجنيد النافذة في المستعمرات وقل منهم من أحس بارتباط هواية جارفة أو احتراف محبب .

كان أولاد القرى بسراويلهم و قمصان نومهم الفضفاضة , و طاقياتهم البيضاء , و جعب القماش المزركش المدلاة على جوانبهم , يبرز منها لوح حجري أو كراسة مفتولة الصفحات كانوا يلوحون بأيديهم للقافلة ببراءة الأطفال و فضولهم , في حين كان الرجال يلقون عليها نظرة ازدراء خاطفة , بينما تلتف النساء و البنات بمآزر ملونة يلتثمون بها و يتأملون القافلة طويلا» من خلف المشربيات أو جذوع الأشجار بعين واحدة أو بكلتيهما .

و بدأ النهر بضفافه الكثيفة الخضرة يبتعد بسرعة و أخذت حدة الجبال المرتفعة تخف و تتلاشى , و الهواء يزداد سخونة و الطريق خشونة و تصعيدا» و الغبار كثافة» و اصفرارا» , و راحت البغال تتصبب عرقا» لزجا» و الرجال يحتمون من حرارة الشمس المرهقة بتغطية رؤوسهم بمحارم يدخلونها تحت طرابيشهم فتتدلى أطرافها على آذانهم و أقفيتهم .

و انقطع الغناء , و بدأ الرجال يحثون بغالهم بالسوط يفرقع في الهواء بصرخات جافة رتيبة

دي . . . هوس . . . دي . . .

و بدأ فجأة أمام القافلة نجد عار منبسط , أحست معه العربات الفارغة بشيء من الراحة و النشاط فاندفعت متلاحقة , في حيوية ظاهرة تزيدها في فترات نادرة بوق سيارة فورد تملأ الفضاء غبارا» و هديرا» , و قد التف ركابها رغم الشمس المحرقة بأغطية يتقون بها سحب الغبار المحومة خلفهم و على جانبهم .

و في نهاية ذلك النجد المنبسط , الذي عرف حمد فيما بعد أنه صحراء الديماس بدأت الطريق تهبط و تتعرج و تضيق بشكل خطر و كان على الرجال أن يظلوا على غاية من الحذر و اليقظة و لا سيما عندما تقبل , و نادرا» ما تقبل سيارة شحن عسكرية أو سيارة ركاب صغيرة تراكم فوقها التراب و تدافع من مقدمتها بخار كثيف و صوت غليان الماء مختلطا» بهدير المحرك الأجش .

و عندما بدأت الطريق تصعد من جديد في الجبال المنخفضة الجرداء أحس الرجال بالجوع فتناولوا بعض ما في عرباتهم من زاد و راحوا يلتهمونه بلا

شـهية و يشربـون وراء كل لقمـة جرعـة كبـيرة مـن مـاء فاتـر .

طريـق ممـل موحـش عـار و شـمس محرقـة و غبـار و عـرق و عربـات تتلاحـق بـشيء مـن الكسـل و التراخي .

و فجـأة رفـع الضابـط رئيـس القافلـة جسـمه قليـلا» فـوق الـسرج و لـوح بيـده و صرخ بـكل مـا في صوتـه مـن قـوة و حـدّة :

هالت . . .

توقفـت العربـات , و أخـذ الرجـال يتحسسـون أسـلحتهم , و تراكـض ضبـاط الصـف , فتقـدم الرئيـس و أشـار إلى سـهل واسـع مكشـوف إشـارة دائريـة و أعطـى أمـره بالاسـتراحة و نصـب المخيـم .

قفـز الرجـال إلى الأرض و أخـذوا يجـرون بغالهـم بالأعنـة و أخـذوا يجـرون بغالهـم إلى السـهل المصاقـب للطريـق و دبـت في القافلـة حركـة ضجـة و قرقعـة مـا لبثـت أن خفـت شـيئا» فشـيئا» و انتصبـت في ذلـك السـهل الصغـير مجموعـة مـن الخيـام الصغـيرة تحيـط بهـا في شـبه دائـرة عربـات جاثمـة ربـط إلى جوانبهـا عـدد كبـير مـن البغـال أدخلـت رؤوسـها في أكيـاس العلـف بعـد أن ارتـوت مـن جـدول صغـير ينسـاب في خنـدق ضيـق عـلى جانـب الطريـق .

كان الوقـت أصيـلا , فانتـشر الرجـال يجمعـون مـن ذلـك السـهل مـا يسـتطيعون جمعـه مـن أشـواك و عيـدان جافـة لتهيئـة الشـاي و الاصطـلاء , فقـد بـدا واضحـا» أن الليـل سـيكون قارسـا» في هـذا النجـد المكشـوف الـذي تحيـط بـه التـلال المرتفعـة و تطـل عليـه قمـم جبـل الشـيخ يغطيهـا بقايـا ثلـج يسـطع تحـت أشـعة الشـمس في مزيـج مـن أرجـوان و بلـور .

تجمـع كل جنـس مـن تلـك القافلـة في حلقـة صغـيرة أو كبـيرة و عـلا اللغـط و الهمهمـة و انطلقـت الأيـدي تلـوح في الهـواء معـبرة عـن طلـب أو خـبر , وعندمـا أقبـل الظـلام كانـت دوريـات الحراسـة قـد وزعـت و النـيران تشـب و تخمـد هنـا و هنـاك و أكـواب الشـاي تلمـع و تصطـك .

و حـاول حمـد أن يعتـزل رفاقـه لا كرهـا بهـم و إنمـا لاعتيـاده العزلـة و لشـعوره بـشيء مـن الحـرج و الارتبـاك في مثـل تلـك الأجـواء التـي ينطلـق فيهـا الجنـود عـلى سـجيتهم يـروون مغامراتهـم و تجاربهـم دون أي تـورع أو تحفـظ . إلا أن صديقـه الكابـورال محمـود دعـاه إلى حلقتـه في مـا يشـبه الأمـر :

- تعال هنا يا ولد العرب . . .

و أكـد عليـه في حركـة سريعـة مـن يـده بـدت عـلى ضـوء النـار و كأنهـا إشـارة سـاحر فتقـدم حمـد بـلا وجـل و جلـس يـشرب الشـاي القاتـم و يصغـي بـشيء مـن الاهتـمام إلى أحاديـث الرجـال , و كانـوا جميعـا» عربـا» مـن شـمال افريقيـا تغلـب عـلى لسـانهم تعابـير مـن الفرنسـية المشـوهة و في لهجتهـم حـدة تـرص الألفاظ وتشـد عـلى بعـض المقاطـع شـدا» تختفـي معـه المقاطـع الأخـرى , إلا أن حمـد اسـتطاع أن يسـتوعب بـشيء مـن الجهـد كل مـا دار في تلـك السـهرة الطريفـة الخاصـة مـن أحاديـث بعضهـا جـدي وأكثرهـا ماجـن رخيـص.

و لم تطـل هـذه السـهرة الفريـدة كثـيرا» فقـد بـدأ الرجـال ينسـحبون واحـدا» واحـدا» إلى خيامهـم و لم يبـق سـوى الكابـورال و الفتـى الجبـلي الـذي اعتـاد السـهر و الاصغـاء باهتـمام إلى أحاديـث المضافـات و السـمر حتـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل حـول شـاعر يغنـي عـلى الربابـة أشـعار البـداوة و طرائـف أخبـار الحـب و الحـرب .

أشـعل الكابـورال محمـود سـيجارة مـن عـود يحـترق و قـدم لزميلـه الشـاب سـيجارة أخـرى و لكنـه اعتـذر باقتضـاب , فأعادهـا الكابـورال إلى علبـة الصفيـح الصغـيرة التـي يحملهـا , و تنـاول قبضـة مـن العيـدان الجافـة و رمـى بهـا فـوق النـار التـي بـدأت تخبـو فتوهجـت في هـدأة الليـل دافئـة منـيرة ثـم ألقـى بعـض الأعشـاب الخـضراء التـي كان جمعهـا بنفسـه مـن السـهل فعبـق الجـو برائحـة عطرية منعشـة , و نفـث دخـان سـيجارته عـدة مـرات متلاحقـة ثـم سـمّر عينيـه طويـلا» في رفيقه الشـاب , فأحـس حمـد برعشـة خفيفـة تهـزه هـزا» ولم يسـتطع أن يتأكـد في مـا إذا كان مصـدر تلـك الرعشـة هـو تلـك النظـرة الرهيبـة التـي زادهـا تألـق النـار و تموجهـا غرابـة و نفـاذا» , أو أنهـا كانـت نسـمة قارسـة جعلتـه يرفـع قبـة معطفـه يغطـي بهـا أذنيـه و يلتثـم بهـا في محاولـة لإخفـاء اصطـكاك أسـنانه المفاجـئ .

و انطلق كابورال محمود يتمتم :

- اسمع يا سي أحمد , أنت دخلت العسكرية من أجل الخبز , أو من أجل البدلة لكن كابورال محمود أخذوه بالقوة من بين يدي أبيه و أمه , ليخدم العلم . . . علم الدولة التي احتلت بلاده منذ أكثر من تسعين سنة .

و عاد ينفث دخان سيجارته من جديد و هو يسمر عينيه في صديقه الشاب و كأنه يقرأ فيهما الأثر الذي تركه في نفسه هذا الحديث المفاجئ . . .

و ارتفعت نبرات صوته قليلا» و تابع حديثه في عصبية ظاهرة و هو يجهد في إخفائها تحت ستار من الهدوء المصطنع :

- حملتنا باخرة كبيرة إلى بيروت من ميناء وهران , مئات و مئات , و من هناك انتظمنا مع جنود المستعمرات في حملة ضخمة سارت باتجاه دمشق .

كان الشائع و المعروف بيننا أن الملك فيصل يطلب مساعدة الجيش الفرنساوي و أنه اتفق مع الجنرال الكبير على أن يعاونه هذا الجيش في حفظ أمن البلاد .

و سارت الحملة تتقدمها المصفحات و تحلق فوقها بعض الطائرات , و عندما وصلنا إلى أسفل هذا الوادي (و أشار بيده إلى منطقة مظلمة عميقة) بدأت المدفعية و الطائرات تضرب بشدة باتجاه هذا السهل الذي نخيم فوقه , و تقدمت المصفحات و أكثرنا لا يعلم من الأمر شيئا» , و عندما وصلنا إلى هنا كانت بعض الجثث منثورة فوق السفوح , و بقايا أسلحة و عتاد و خيول .

و وقف الضباط يؤدون التحية لجثة تكومت فوق بقعة من الدم المتجمد و قد تدحرجت إلى جانبها قبعة طويلة من الفرو في أعلاها باقة من ريش النعام الأبيض و عندما حمل القتيل فوق نقالة ميدان كان وجهه لا يزال وضاء» مشرقا» و الأوسمة تغطي صدره الملطخ ببقع الدم الممزوج بالتراب و الحصى الناعمة .

و هناك , في سفح التلة رفع النعش على أصوات أبواق حزينة و قعقعة و داعية من السلاح و تناول كابورال محمود قبضة أخرى من الأعواد الجافة و الشوك فتألقت النار من جديد و ألقت بعض ومضاتها ضوءا» خافتا» على البقعة القريبة المسورة الموحشة .

و تابع كابورال محمود و كأنه ينفس بهذا الحديث عن صدر مثقل بالذكريات المريرة و المكبوتة :

و هنا في ميسلون فهمنا أن الجيش قادم لاحتلال الشام و أن الملك فيصل هرب باتجاه فلسطين و أن كل مقاومة قد انتهت مع مقتل وزير حربية الملك , و تفرق قواته التي كانت ترابط منذ ساعات في هذه السفوح .

و من دمشق , انطلقت القوات بمقاومة حينا و بلا مقاومة أحيانا» نحو الشمال و الشرق .

و بقي عليها أن تدخل جبل الدروز . . .

و نظر الكابورال محمود نظرة عميقة فاحصة ليرى مدى اهتمام سميره , فلم يستغرب أن يراه وقد تحول إلى كتلة من الانتباه و التلهف و قد أرخى معطفه عن أذنيه و شبك يديه فوق صدره على طريقة أولاد الكتاب :

- و علمت في ما بعد لماذا تأخر الفرنساوي سنة كاملة بعد ميسلون قبل أن يرفع علمه فوق قلعة السويداء و يخصص لحراسته سرية واحدة فقط من الجيش .

أنت ابن السويداء , و أنا أعرف أنه يعز عليك أن أمس شعور أولاد بلدك , و لكن معليش . . هل تسمح لي أن أكمل حديثي ؟

هز حمد رأسه علامة الموافقة دون أن يختلج له جفن أو شفة و تابع الكابورال :

- كان من أولاد بلادي ليوتنان أحمد , رحمه الله و كنت في فترة من الزمن مرافقا» له و كان يحدّث بقسوة و شجاعة عن الحكم الفرنساوي . و سمعته مرة يحدّث عن الجبل :

- بـلاد رجـال أشـداء , فرسـان , عشـاق للحريـة و الكرامـة , جبلهـم وحـده عـصي عـلى العصمـلي بالـدم و البـارود .

فرنسـا لم تسـتعمل في كل تاريخهـا الاسـتعماري الحيلـة و الدهـاء إلا في دخـول تلـك المنطقـة المجبولـة بالـدم , قالـت للزعـماء مالنـا و مالكـم أنتـم حـكام في بلدكـم و لكـم حريـة المعتقـد و العـادات و التقاليـد و الإدارة , لا نطلـب منكـم إلا أن تسـمحوا لنـا برفـع العلـم الفرنـسي رمـز الصداقـة بيننـا و بينكـم و تسـمحوا بإقامـة حاميـة لا تزيـد عـن المئـة جنـدي لحراسـة ذلـك العلـم .

و في الخفـاء مـد بعـض زعـماء بلادكـم و قبضـوا الذهـب , و المناصـب , و الوعـود , و آخـرون استسـلموا للواقـع و قلائـل أدركـوا الفـخ المنصـوب .

و لكنهـم لم يسـتطيعوا أن يحملـوا النـاس عـلى حـرب خـاسرة بعـد أن احتـل الانكليـز الأردن و فلسـطين و العـراق و الفرنسـاوي سـورية الداخليـة و السـاحلية .

- بلادكـم عـلى فوهـة بـركان , بالأمـس حادثـة أدهـم خنجـر , و غـدا» دمـاء و خـراب و تـشرد . . و راس سـيدي عبـد القـادر . . .

اقترب موعد تفتيش الحرس . . . تصبح على خير .

و قفـز مسرعـا» وهـو يتحسـس مسدسـه , في حـين ظـل حمـد و كأنـه قـد سـمّر في مكانـه برهـة مـن الزمـن لم يلبـث بعدهـا أن ألقـى عـلى النـار حفنـة تـراب و انسـحب إلى أقـرب خيمـة يلـف نفسـه بالبطانيـات التـي كان يجلـس فوقهـا , و يصنـع مـن حذائـه و معطفـه مخـدّه , و يستسـلم إلى نـوم عاجـل , سـاهم أرق الليلـة الماضيـة و عنـاء النهـار و الإرهـاق الذهنـي في جعلـه عميقـا» ثقيـلا» .

الفصل الثالث

نهض حمد متثاقلا» في الصباح و هو يتمنى على غير عادته لو سمح له أن يستسلم من جديد إلى النوم , و أحس لأول مرة , و بعمق , قسوة النظام العسكري .

و عندما راح يهيئ عربته للرحيل الوشيك , كان شارد الذهن , مرهقا» منقبضا» .

تحركت القافلة , و تحرك معها حمد , و قد اختلطت و تدافعت و تشابكت في رأسه صور كئيبة دامية , أضفى عليها السهل المقفر الحزين و القبر الفريد المهجور جوا» من الخشوع الرهيب .

و سارت القافلة في صمت و كأنها هاربة من ذكريات تضغط على حناجرها بيد متصلبة باردة . و ما لبثت الطريق أن بدأت تنحدر انحدارا» مخيفا» و تتلوى منعطفاتها المتعددة المتلاحقة , تسندها من جهة سفوح التلال , و تفخر على جوانبها الوديان السحيقة أفواهها الجافة في انتظار فريسة وشيكة الوقوع .

و ساد السكون و اليقظة و سحابة من خوف , يقطعها بين الحين و الحين تنبيهات مشددة من صف الضباط الذين كانوا قد توزعوا على طول القافلة .

و بدت الطريق في أسفل الوادي منبسطة و أن ظلت متعرجة تحشرها عن الجانبين جبال عالية , و تنتصب كأنها جدران تيه أسطوري .

توقفت القافلة في مدخل الوادي , وادي القرن , الذي أضفى عليه قطاع الطرق و الهاربون من وجه السلطة شهرة رهيبة , و الذي بدت كهوفه و صخوره و الشجيرات القليلة المعلقة في الهواء و بعض الغربان و النسور المحوّمة في أجوائه و الظلال التي كانت تغمره , آنذاك مظلمة شفافة .

بدت جميعها توحي بالوحشة و القلق .

أعطيت تعليمات جديدة فعمّر الرجال بنادقهم و وضعوها فوق ركبهم و نهروا بغالهم بلا حماسة و انسابوا في الوادي الرطب في صمت و ترقب , و تلاحقت العربات بشيء من السرعة كأنما هي تحاول أن تفلت من هذا الوادي الرهيب .

و فجأة برز سهل أخضر قصير المدى كأنه واحة الرجاء و ظهر الأفق ضيقا» على الجانبين إلا أنه كان أرحب من شريط السماء المتعرج الذي كان يجثم فوق الوادي كسقف من الزجاج الأزرق الشفاف و عادت القافلة من جديد تنساب في واد آخر , أكثر انحدارا» إلا أنه كان غنيا» بالأشجار الصغيرة المتشابكة و الزهور البرية , ترتقي في جنباته و تتعلق بشجيراته بعض قطعان الماعز فوق سفوح أقل حدة , وتسمع فيه زقزقة العصافير التي بدأت تهجر أعشاشها .

و بدأ حمد يستعيد شيئا» فشيئا» نشاطه و حيويته , و أخذ يشعر في أعماقه و كأنه يدخل في عالم سحري مشوق , و راحت أبيات العتابا تجيش في حنجرته إلا أن فمه ظل مطبقا» و عيناه تنتقلان بإعجاب و استغراب بين السفوح العارية أحيانا و المكسوة غالبا بأحراج قزمة إلا أنها متشابكة تتخللها بعض البقع الملونة .

و عندما أطلت القافلة على السهل المستند إلى الجبال الهائلة البعيدة و التي تسد الأفق بهاماتها المكللة بالثلوج , استعاد الرجال أنفاسهم و انطلقوا على سجيتهم في فوضى من الألحان الغربية , و انطلقت العربات تطوي الطريق المنبسط في ظلال أشجار الصفصاف الوارفة .

أخذ حمد يتأمل بعينه و بذهنه ذلك السهل الأخضر المتموج , إنه يشبه إلى حد كبير سهول حوران و لكن الأشجار هنا و ألوان السطوح و الجدران و كثافة الزرع و توزع الجداول و انعدام التخوم و الرجوم بين الحقول و النظرة الأولى المفاجأة كل ذلك كان يعطي لسهل البقاع في نظر حمد سحرا لم يشعر بمثله في سهول حوران رغم اتساعها الهائل و جودة غلاتها في سنوات الخير .

و ما كادت القافلة تجتاز قرية شتورة حتى أمرت بالتوقف و التخييم , و سمح للجنود بارتياد سوق البلدة جماعات جماعات على أن يعودوا إلى المخيم عندما تختفي أشعة الشمس عن قمة جبل الشيخ الذي كان يبدو معمما» بالثلوج خلف سلسلة طويلة من الجبال الجرداء المقفرة إلا من بعض القرى الصغيرة المعلقة كأعشاش النسور أو بعض قباب الأولياء البيضاء .

و في المساء عاد بعض الجنود مخمورين فلم يفعل الضابط شيئا» سوى أن يوصي رفاقهم بالاعتناء بهم , في حين انصرف الباقون إلى تهيئة العشاء و الشاي بشيء من الفتور .

و في الصباح انطلقت القافلة من جديد مصعدة هذه المرة في منعطفات متلاحقة ترتفع حتى السماء .

و في الساعات الأولى بدا التعب و الجهد واضحين على الرجال و الحيوانات جميعا» , حتى راحت العربات نفسها رغم ضآلة حمولتها تصرّ و تئن أنينا» متلاحقا» , و بدت الوديان سحيقة رهيبة و القمم تزداد شموخا» إلا أن الطريق كانت تؤنسه بين الحين و الحين قرية قريبة أو باقة من أشجار حقل يتماوج زرعه أو سيارة تهدر ببطء , أو فلاح خلف حماره ينشد أناشيد أبو الزلف و الميجنا .

و عندما وصلت القافلة ضهر البيدر كان العرق يتصبب منها رغم النسمات الباردة و القارسة أحيانا» .

و تابعت السير بعد استراحة قصيرة و بدأت تنحدر قليلا على حافة الوديان و عند الأصيل كانت تتوقف في فسحة من الأرض ضيقة يحتضنها الجبل و تندرج حولها السفوح مكسوة ببعض البساتين و الزروع , و تنفرج زاوية منها لتطل على غابات هائلة من الصنوبر تتناثر في ظلالها عشرات القرى بقرميدها الأحمر و سطوحها المتباعدة , و طرقاتها المتعرجة .

شددت الأوامر للإحتراس من البرد , و الثلوج تبدو من ثنايا الوديان كثيفة و قريبة في حين كانت الجداول تترقرق تحت أقدام المخيم و تهدر في شلالات صغيرة متعددة و متلاحقة .

حاول حمد أن يستعيد الصور الغريبة الرائعة التي مرت أمام عينيه في ذلك النهار إلا أنه أحس بأنه يستسلم إلى النوم الهادئ استسلام الطفل .

و مع شروق الشمس استؤنفت الرحلة , في جو شاعري لم يسبق لحمد أن تمتع بمثله في يوم من الأيام .

وديان متقاطعة تكسوها الخضرة حتى قمم التلال , و سفوح متدرجة و مياه متدفقة و قرى على غاية من الجمال و النظافة و وجوه باسمة وردية , و جبال تسد الفضاء ببياض قممها العاجي و تحت أقدام الأفق البعيد امتدت زرقة السماء و لكنها ليست منها . . . انه البحر . . .

آه , كم كان شوق حمد كبيرا» لرؤية البحر , أما بيروت فقد كان يتصورها مدينة مثل دمشق , فلم تكن لذلك تثير في نفسه ذلك الشوق العارم .

و في الطريق إلى بيروت كانت القرى تتقارب و تتباعد , و يتصل بعضها ببعض تنتثر حينا» باقات من ورد على رؤوس التلال بين المظلات الصنوبرية الخضراء المتشابكة , و تتجمع أحيانا» متدرجة فوق السفوح أو على شفير هاوية سحيقة , أو في أحضان الوديان الضيقة بين مساطب التوت القزم , و حقول القمح الضيقة النادرة و كان الناس يبدون في أزياء شبيهة بالأزياء التي تعود حمد أن يراها عمائم و مناديل بيضاء , و شراويل , و طرابيش , و قبعات . . . إلا أنه استطاع أن يلاحظ أن الناس هنا يبدون أشد اهتماما» بمظهرهم و أكثر بشاشة .

و تذكر حمد أن والده عباس أبو ذياب قد هجر قريته وهو في مثل سنه للعمل في حوران حجّارا», و أن الظروف و المهنة جعلته يستوطن السويداء و يبني لنفسه فيها بيتا» متواضعا» و يسلو مع الزمن أهله و قريته المطلة من بعيد على بيروت .

و لم يحاول حمد أن يتعرف إلى قرية والده و أجداده , فلا نظام القافلة يسمح و لا هو أحس إليها بحنين المهاجر العائد .

و في المساء كانت القافلة تدخل الثكنة بعد أن تأخرت قليلا» لإصلاح بعض عرباتها و أعطى الجنود حرية التجول , بلا سلاح في المدينة , منذ الصباح الباكر و حتى التاسعة مساء دون أي تفصيل ذي أهمية .

كان الموج يتدافع على أقدام الصخور الخشنة و يندفع رذاذا» من بين ثقوبها عندما وقف حمد بعيدا» يرقب حركاتها في اهتمام و بشيء من الوجل .

كم كان يتمنى أن يجلس على صخرة من تلك الصخور الناتئة يغمر قدميه بالماء و يسبح بنظره حتى الأفق حيث تختلط السماء بزرقة الماء المتموجة.

لم يكن حمد جبانا» و لكنه أحس بأنه لا يملك الشجاعة الكافية حتى على الاقتراب من صخور الشاطئ , و فضل أن يبتعد و أن يتابع مسيره نحو المدينة و عيناه تلاحقان حركات الموج التي لم تكن تهدأ و بعض الطيور الكبيرة البيضاء و المراكب التي كانت تبدو في عرض البحر .

و أعجبه منظر رجل يقف على رجل واحدة , أحيانا» تغمر المياه المتدافعة قدمه العارية و إلى جانبه سلة من القش , و في يده قصبة طويلة تدلى من رأسها خيط يلمع تحت أشعة الشمس و يرفع بين الحين و الحين سمكة تتراقص في الهواء ولا تلبث أن تغيب في قعر السلة .

و أدهشه صبية يلبسون شيئا» ضيقا» يسترون به عورتهم و يقفون فوق خشبة قليلة الارتفاع يقفزون , أقدامهم في الهواء و أكفهم المضمومة تشق سطح الماء , في حين تمدد بعضهم يستريح فوق تراب أصفر لا يعلق بالجسم و لا يلوثه .

و قادته قدماه إلى الميناء فاتكأ على حاجز خشبي زمنا» لا يدري كم طال , و راح يتأمل البواخر الضخمة و المراكب الخشبية و الأعلام و تلال الفحم الحجري و الشبان ذوي البدلات البيضاء و الأشرطة الزرقاء و الآلة الضخمة التي كانت تحمل من المراكب إلى عربات القطار الجاثمة تحتها صناديق كبيرة قد لا يستطيع عشرة رجال أن يزحزحوها , وظل يفتش بعينيه و بذهنه عن الطريقة التي تعمل بها هذه الآلة حتى اهتدى إلى قفص حديدي في أعلاها شاهد من خلال كوته الزجاجية رجلا» جالسا يحرك أذرعة من حديد .

ولكنه لم يطق البقاء رغم ميله الشديد للبقاء فقد كانت الروائح المنبعثة من الميناء لا تشجعه على المكوث وقتا» أطول , فعاد يتسكع في أسواق المدينة و شوارعها بلا هدف و بلا اهتمام .

و عندما وصل إلى الثكنة بعد أن استدل مرارا» , كان جائعا» متعبا» , فأكل بسرعة و شهية و استغرق في نوم عميق في حين كان رفاقه يتوافدون بين مخمور متعتع أو طرب مترنح أو مغامر معصوب الرأس .

* * *

توقفت في اليوم الثاني عربات ثلاث أمام بناية ضخمة , و أمر الجنود الثلاثة بالنزول إلى القبو البارد المظلم الممتد تحت جزء كبير من البناية .

و كانت تنبعث من القبو رائحة الخمور تكاد تدير الرأس و يزيدها عبقا» الأبخرة المتصاعدة من الدرج الواسع المنحدر نحو الظلام و قد بلله النبيذ المعتق .

- احمل . . .

صرخ السرجان ذو الوجه الأحمر و القامة القصيرة المكورة كأنها واحد من مئات البراميل المكدسة .

و هز حمد رأسه علامة الرفض دون أن يتحرك و دون أن ينبس بكلمة .

- احمل . . .

و أشار إلى برميل النبيذ في حركة عصبية ظاهرة .

و ظل حمد جامدا» كالتمثال .

- احمل . . . خنزير . . .

و أحس حمد بأن الأرض تميد تحت قدميه و أن الدم قد تحول إلى جمر في عروقه و أن الدنيا قد غامت في عينيه .

و في وثبة جنونية كان يجثم على صدر السرجان و هو يستل خنجره المجدلاني الذي لم يكن يفارقه , فتلمع بسمة الموت في نصله الرهيب , غير أنه بوعي أو بلا وعي رمى بالخنجر بعيدا» بين البراميل المكدسة فانطلق كالكوكب الهاوي في ليلة شفافة الظلام , و عاد يشد بركبتيه فوق الصدر المتراخي و الساعدين المرتجفتين .

- نعم أنا شهرت الخنجر على السرجان و ليس صحيحا» ما يدعيه بأنه هو الذي قذفه من يدي , لقد أهانني مرتين , مرة في محاولة لإرغامي على حمل مشروب محرم في مذهبنا و مرة ثانية بشتمي .

و تداولت المحكمة , و كان الحكم بعد التخفيف السجن لمدة سنة .

اقتيد حمد بين اثنين من شرطة الجيش , ذوي القبعات السوداء الاسطوانية إلى عربة مغلقة , و عندما فتح بابها الخلفي , وجد السجين الشاب نفسه في باحة واسعة تحيط بها الأسوار العالية المعدومة الكوى تنتصب وتتدلى فوقها جبال و أكوام من الشريط الشائك يرتفع بينها من مسافة إلى أخرى محرس خشبي يطل من كوته الضيقة رأس تجمد و حربة طويلة تسمرت بلا بريق و على الأسطحة كان يتنقل في حركة بطيئة حراس آخرون تتوهج حرابهم في أشعة الشمس الدافئة .

جرّد من حزامه و انتزعت أربطة حذائه و سيق إلى ما يشبه المهجع الواسع و عندما أغلق خلفه الباب الحديدي وجد نفسه وجها» لوجه أمام عدد من الأسرة الحديدية الضيقة يرقد فوقها بعض الجنود بينما كان زملاؤهم الآخرون ينظرون بلا استغراب إلى القادم الجديد .

لم يسلم على أحد ولم يبتدره واحد منهم بالسلام و تقدم و كأنه يسير في الحلم نحو سرير رآه فارغا» فارتمى فوقه و هو يغالب دمعة محرقة اضطر أن يمسحها خفية بطرف كمه .

و عاد العشاء الذي قدم إليه دون أن تمسه يد , و ظل و هو ممدد يعد دقات الساعة البعيدة الكبيرة و يستمع بلا اهتمام إلى هدير الأمواج .

و عندما كانت الديوك تعلن تباشير الضياء كان هو لا يزال ممددا»ساهرا» فوق فراشه و كأنه قطعة من خشب .

و أخذ واحد من المساجين يحاول إخراجه من صمته .

- من أنت ؟ لماذا جاؤوا بك إلى هنا ؟

و رويدا» رويدا» أخذ لسان حمد ينطلق متكتما» متجاهلا» في بادئ الأمر إلا أنه سرعان ما انطلق يروي لزملائه أكثر مما كانوا يأملون أن يعرفوه , كانوا ثمانية و هو التاسع كلهم عرب من شمال افريقيا أو من سورية إلا واحدا» يبدو من سحنته أنه من الشرق الأقصى و كان رفاقه يتبادلون مهمة الترجمة بشيء من المشقة و يستعينون بكثير من الحركات تعويضا» عما يعجزون عن إفهامه لجهل متبادل بكثير من المفردات و التعابير .

و بـدأ حمـد يأنـس إليهـم و يأنسـون إليـه , و مـع ذلـك فإنـه كان يشـعر دائما» بأنـه مظلـوم و أنـه لم يتعـود و لا يسـتطيع أن يتعـود هـذه الحيـاة الكسـولة المتراخيـة المحرومـة مـن نـور الشـمس و الهـواء و الحركـة و المـرح . . .

و كانـت أشـد سـاعات سـجنه ضيقـا» و مـرارة» عندمـا كان يرغـم عـلى حمـل نفايـات السـجن في براميـل حديديـة ضخمـة يلقيهـا في عربـات الزبالـة , و هـو يرتجـف غيضـا» مخنوقـا» .

و مـرت الأيـام و بـدأ يـزداد شـحوبا» , بـدأ لونـه الأسـمر يبهـت شـيئا» و شـيئا» , و ضاعـت معـالم الزمـن , فلـم يعـد يذكـر مـن أيـام الأسـبوع غـير يـوم الأحـد إذ تمنـح فيـه فسـحة أطـول للتنفـس و تجمـع الثيـاب للغسـيل .

و أحـس بالشـتاء يقـترب فقـد كانـت الغيـوم تتراكـم في السـماء و المطـر ينهمـر غزيـرا» في فـترات متقطعـة , إلا أنـه لم يسـتطع أن يصـدق أن يكـون الشـتاء بهـذه النعومـة , فـلا الـبرد قـارس و لا الريـاح عاصفـة تلسـع و تـدوي و لا السـماء دائمـة التجهـم غـير أن هديـر الأمـواج بـدأ يعلـو و يـزأر بـلا انقطـاع .

كانـت غرفـة سـجنه تسـتقبل بـين الحـين و الحـين ضيفـا» جديـدا» أو تـودع واحـدا» أو أكـثر غـير أن حمـد أخـذ يلاحـظ أن عـدد السـجناء بـدأ يتزايـد وأن بعـض الأسرة قـد أبـدل بـأسرة ذات طبقتـين و أن الحراسـة ازدادت تشـددا» و فسـحات التنفـس بـدأت تتباعـد و تختـصر .

و تسـاءل حمـد مـرارا» بينـه وبـين نفسـه لمـاذا لم يسـأل عنـه أحـد مـن أهلـه ؟ و لم يصـدق الأجوبـة التـي كان يسـلي ضيقـه و ألمـه بهـا , فـإن السـجن لا يخلـو مـن وقـت لآخـر مـن زائـر يحمـل هديـة أو يلقـي نظـرة عـلى قريـب لـه مـن خلـف الحاجـز الحديـدي السـمج .

بـدأ يقلـق و بـدأت الهواجـس ترسـم في ذهنـه صـورا» كئيبـة مشوشـة و لم تزدهـا الأيـام إلا تشويشـا» و كآبـة .

و سـمع بعـض السـجناء الجـدد يتحدثـون في شـبه همهمـة و أحـس حمـد بالفضـول لأول مـرة فسـمح لنفسـه أن يقـترب و أن يسـترق السـمع , لقـد كان المحـدث يـردد كلـمات يألفهـا و إن هـو لم يسـتطع أن يفهـم لأول وهلـة , موضـوع الحديـث :

- كانت القلعة عندما أقبلنا عليها لا تزال تحت الحصار الشديد و الدخان و اللهيب يرتفع عاليا» فوق أبراجها و أسوارها , و طلقات النار و تفجر القنابل يدوي في أرجاء الوادي .

كان الثوار يهاجمونها من جهة واحدة من جهة البلدة , بعد أن استحال عليهم مهاجمتها من جهاتها الثلاث الأخرى المبنية فوق صخور الوادي السحيق , خرقوا جدران البيوت الملاصقة للأسوار و نصبوا السلالم و تدافعوا فوقها واحدا» إثر واحد و هم يهزجون بألحان جافة غريبة , و يرمون القنابل اليدوية و يغمسون اللحف بالبترول و يشعلونها و يقذفون بها السقوف الخشبية فتسمع لها من بعيد فرقعة رهيبة يزيدها النار و الدخان هولا» و رعبا» .

دافعت الحامية دفاع المستميت و كانت على وشك الاستسلام عندما أقبلنا و عندما بدأت المدفعية و الطائرات تدك صفوفهم دكا» فانسحبوا .

و هنا أشعل المحدث الشاب سيجارته و أشار إلى حمد بالاقتراب عندما شعر مثلما شعر رفاقه الآخرون بأن كلمة واحدة من الحديث لم تفته .

- انسحبوا في فوضى حتى أنهم لم يتمكنوا على غير عادتهم من حمل قتلاهم و جرحاهم , و جاء بعض رجال البلدة يقدمون خضوعهم للقائد و كان بينهم بعض الشيوخ و أشار القائد إلى بضعة رجال منهم , ساقهم الجند إلى ساحة القلعة و سمعت على الأثر طلقات نار عرفنا بالسليقة أن حكما» بالإعدام قد نفذ .

و أمر الأهالي بجمع القتلى من الجانبين , و كانوا كثيرين , و كان منظرهم رهيبا» حتى أنني أحسست بالغثيان , إلا أن واحدا» كان أشدها وقعا» في نفسي فقد أسرع بعض الجنود ينتزع ساعة من صدرية شاب تكوم على قدم أحد السلالم و كان الشاب غريب الزي يلبس قنبازا» أبيض مخططا» و شعره الأسود الفاحم يرتمي فوق منكبيه و عندما رفع الجندي الساعة كان الدم قد تجمد في الثقب الذي أحدثته الرصاصة القاتلة .

شهق حمد شهقة مكبوتة و أحس بقلبه يهبط و يتوقف , و خيل إليه أن ركبتيه ترتجفان و أن فمه قد جف , وراح العرق باردا» يتصبب من جبينه .

لم ينطق بكلمة و لم يطلب أي إيضاح و اكتفى بأن يتقبل لأول مرة سيجارة تناولها بشعور أو بلا شعور و لم يمر بخلده على الإطلاق أنه ينتهك بذلك أعراف بلاده , فقد كانت الصدمة مفاجئة صاعقة و راح ينفث الدخان في حركات واضحة الاضطراب و هو يجهد في إرسال دمعة محرقة تجمدت بعناد في مآقيه .

و في ذلك السكون الرهيب تحركت شفتا حمد و سمعت همهمة كأنها قادمة من عالم آخر

، غدا» ... دماء , و خراب , و تشرد ! ...

الفصل الرابع

-- استيقظت المهاجع في السجن العسكري ذات ليلة على حركة غير عادية , و عندما بدأت أجراس المدينة ترحب بالعام الجديد , سرت كالتيار الكهربائي وشوشة اهتزت لها القلوب فرحا « :

عفو عام ...

و في الصباح الباكر كان الرجال يخرجون من المهاجع لتنقل كل فريق منهم سيارة عسكرية تنطلق إلى إحدى الثكنات التي ازدادت عددا» و اتساعا» خلال الأشهر القليلة الأخيرة .

أخذ حمد يستعيد لونه و نشاطه و بعض تفاؤله و هو ينتظر دوره للالتحاق بفرقته الجديدة بدمشق و ظل نظره طوال ساعات فراغه معلقا» بأمواج البحر دون أن يسمح له أو لغيره بالاقتراب منها أو من المدينة , فقد كان الجيش منذ منتصف الصيف الماضي في حالة حرب حقيقية .

و انطلق حمد في رتل طويل من الجنود المغاربة يدقون شوارع المدينة المقفرة بأحذيتهم الضخمة نحو المينا و توزعوا على عربات قطار صفر صفرة طويلة و انطلق في سكون الليل ينفث نارا» و دخانا» .

سار متمهلا» ثم انطلق في سهول بيروت إلا أنه سرعان ما بدأ يتباطأ و أخذ لهاثه يزداد تسارعا» وحدة و هو يتسلق السفوح زاحفا» متشبثا» بالأرض و عرباته تصطك و تتمايل و تترنح و الجنود بين نائم يتراقص رأسه فوق صدره أو ساهر يهتز اهتزاز أوراق الخريف .

كان السفر مملا» مزعجا», و القطار كثير التوقف إلا أنه لم يحدث له من المضايقات المرتقبة غير بضع طلقات نارية عند مشارف دمشق جرحت بعض الجنود و حطمت بعض النوافذ .

وزّع الجنود الجدد على المعسكرات الكثيرة المنتشرة حول المدينة , و هنا أدرك حمد معنى العفو : إنه استخدام لكل القوات العسكرية حتى السجناء لتغذية الحرب التي بدأ يعرف عنها بعض الخطوط الكبرى . و تعرف في معسكره الجديد على جنود من أبناء بلده كان واحد منهم مثله في السجن و الثلاثة الآخرون كانوا في مخافر الحدود التركية شمال الاسكندرون .

و بدأت فكرة الهرب إلى الجبل تراود أذهانهم و أسر بعضهم لبعض و مروا بيديهم أيديهم على شاربهم يقسمون على الكتمان و اتفقوا على خطة .

سار القطار من دمشق متجها» نحو الجنوب و عرف الجنود جميعا» أنهم ينقلون إلى درعا مركز التجمع لحملة الربيع المقبلة ، و لم يكن الأمر سرا» .

و بعد أن اجتاز القطار محطة المسمية حيث مجموعة كبيرة من المخيمات العسكرية توقف قليلا» بانتظار إصلاح السكة الحديدية التي كان الثوار قد نسفوا بضعة أمتار منها في الليلة الماضية , و عند الأصيل كان يقف قليلا» في محطة أزرع حيث انتصب مخيم محصن واسع , و من ثم بدا الليل البارد القاتم يخيم بسكونه المزعج على وجوه الجنود الذين كانوا أشد سكونا» و فزعا» و هم يقتربون من أرض لا تزال تعبق برائحة الدم و البارود و الدمار .

- تباطأ القطار ثم توقف في قرية صغيرة لم يلمح فيها بصيص من نور

إلا فانوس ألماني يتجول بين العربات و ضوؤه يتراقص خافتا» في الظلام الكئيب . و عندما كان يتحرك منطلقا» ببطء كان أشباح خمسة يتسللون منه و ينطلقون نحو الشرق الذي كان يحدده بوضوح انسياب القطار المتسارع باتجاه الجنوب .

و انطلق صوت يشبه عواء الذئب مرة تلو مرة و كانت تلك إشارة التجمع, و همس أحدهم :

- البواريد تحت المعاطف يا شباب .

و كان عناق خاطف و تمتمات : الحمد الله بالسلامة . . . توكلنا على الله . . . . .

وسار الأشباح الخمسة في صمت شامل فوق أرض رطبة لزجة زادت أحذيتهم الضخمة ثقلا» و في سكون ظلام قارس مفزع .

و بدأ المطر ينهمر رذاذا» تتخلله بين الحين و الحين رشات سمحة و انحباس مؤقت .

و ازداد مسيرهم تثاقلا» كلما تقدموا و لكنهم لم يتوقفوا لحظة و لم يلتفتوا مرة واحدة إلى الوراء , و استمروا في سيرهم الأعمى بلا تردد أو تساؤل نحو الشرق أو نحو ما يظنون أنه الشرق .

كانت ثيابهم قد تبللت و أقدامهم المثقلة بالطين اللزج قد بدأت تتراخى و دقات قلوبهم تتسارع بغير انتظام عندما لاحت تباشير فجر ضبابي , ما لبث أن ازداد ضياؤه وضوحا» و بدت معه معالم الأرض في مزيج غريب من غموض و جلاء .

توقف الأشباح و راحوا يتشاورون و يتساءلون في همس غريب مرتجف , و أشار واحد منهم إشارة لا تنم عن فرح عامر و لكنها لم تكن توحي بخيبة الأمل المريرة .

فقد بدا خلف الضباب المتحرك شبح قرية تتسلق سفوح تلة ضئيلة يحرسها بناء منفرد يرتفع فوق هامته صليب زاده ضوء الفجر المنبثق وضوحا» و روعة .

لم يكن لدى حمد و اثنين من رفاقه أدنى شك في أنهم في أراضي قرية خربا , أما الآخران فقد لزما الصمت . . . .

و دارت مناقشة سريعة لمجابهة المفاجئة التي لم يحسبا لها أدنى حساب .

- قد تكون القرية محتلة , و قد يكون أهلها غير موالين للثورة , فقد كانت معلوماتهم عن هذه التفاصيل لا تستند إلا إلى شائعات طائشة .

و في سرعة حازمة اتفقوا على أن يختبئ أربعة منهم في أي مكان صالح لإخفائهم و يتقدم الخامس بلا سلاح يرود القرية , فالبارودة في مثل هذه المناطق المهجورة و في مثل تلك الفوضى العارمة , مطمع مغر و قد تودي بحياة صاحبها .

لم يتأخر حمد في التأكد من أن القرية خالية من أي قوة فرنسية و قد أكسبته الجندية خبرة كافية لمثل هذا الغرض , و سرعان ما قرر أن يدخل القرية هو و رفاقه فإن وجدوا الترحيب كان خيرا» و إن حاول الأهلون مقاومتهم فإنهم لن يستسلموا و لم يكن لديهم أي حل آخر فالأرض حولهم كانت مكشوفة فلا هم يحتملون مسيرة أطول و لا ثيابهم المبللة و جوعهم الشديد يسمح لهم بالاختفاء طوال النهار البارد المطير في بطن الأخدود الرطب .

و أشار إليهم فتقدموا جميعا» , جنود خمسة بطرابيشهم الحمراء التي زادها المطر تهدلا» و معاطفهم المبللة ذات الأزرار الواسعة و بنادقهم الفرنسية الطويلة التي اضطروا أمام الخطر المحتمل المقبل أن يتأبطوها , و من ثم تقدموا متباعدين و لكن في خطوات واحدة و يدهم على الزناد .

و تراكض بعض شباب القرية يتخذون من سطوح المدارس متاريس لهم , و سمعت نداءاتهم تنتقل من سطح إلى سطح :

- لا تطلقوا النار , خذوهم أسرى .

عندئذ رفع الجنود أسلحتهم و لوحوا بها في الهواء , إشارة الولاء و المودة , فتقدم للقائهم شاب أسمر في مثل سنهم عرفوا فيما بعد أنه ابن زعيم القرية عقلة بك الشديد التعلق بالباشا و المتحمس لثورة الاستقلال و الحرية .

أشعلت النار , و ارتفع دخانها في سماء المضافة الواسعة المزدحمة بالشباب و البنادق , و بدأ الدفء يسري في العروق التي بدأت تتجمد كأروع ما يكون الدفء , و أديرت القهوة المرة , و قدم الفطور , تتوسطه صينية واسعة من الكشك ثم ترك الضيوف لوحدهم يجففون ثيابهم على لهب الجلّة و يغرقون في نوم هنيء .

و عندما استيقظوا وجدوا إلى جانب كل واحد منهم بعض الألبسة المحلية فقد كان خطرا» عليهم أن يتجولوا في المناطق الثائرة ببزاتهم العسكرية , و طرابيشهم الحمراء .

و عرف حمد من أهل القرية ومن الرجال الكثيرين الذين صادفهم في طريقه بأن أهالي السويداء نقلوا عائلاتهم و مواشيهم , و بعض غلالهم و أثاثهم إلى الجبال بعيدا» عن خط النار .

اقترب حمد من المدينة و هو ملتثم و بندقيته في كتفه , ولم يصدق لأول وهلة ما سمعه , فقد كان الرجال في مشارف المدينة يروحون و يجيئون , بنادقهم في أكتافهم أو في إيمانهم و أجندة الرصاص تتقاطع فوق صدورهم , وفي عيونهم بريق لم يعهده من قبل : مزيج من التصميم و القلق .

و توغل في أزقة المدينة فإذا هي مقفرة خالية .

- الماء يتدفق من نوافرها صافيا» , لا جرة تلمع و لا منديل أبيض شفاف أو تنورة واسعة ملونة تتماوج , و الأبواب موصدة إلا أقلها , لا ثغاء و لا خوار و لا جناح يرف , و لا ولد يلهو , ولم يكن يخفف من رهبة هذا الفراغ الرهيب الكئيب غير حلقات الرجال حول نار السنديان اللاهبة و خطوات بعض الشبان ينتقلون بصمت جنائزي بين أحياء البلدة الخاوية .

عرف كثيرا» من أبناء بلده و لم يسمح لأحد أن يعرفه إلا أنه استطاع أن يدرك من الوجوه و الأزياء المختلفة و البيارق المتعددة التي مرت به بأن التعبئة العامة في الجبل قد أعلنت .

دق الباب دقات متلاحقة عالية و وثب إلى الباحة دون أن ينتظر الجواب.

كان أبـو حمـود قـد تقـدم بضـع خطـوات و وقـف يتفـرس في القـادم الغريـب , و سرعـان مـا غـاب الرجـلان في عنـاق طويـل تبللـه الدمـوع و تغمـره الزفـرات المتقطعـة .

و أحـس حمـد بـأن والـده يطـوق عنقـه بذراعـه اليـسرى , و عندمـا هـم أن يقبّـل اليـد المخبـأة تحـت الفـروة القصـيرة قفـز مذعـورا» مرتجفـا» فقـد كانـت الـذراع متصلبـة كأنهـا قطعـة مـن سـنديان .

و لم يحـاول حمـد أن يسـأل عـن حمـود فلـو كان حيـا» لـكان إلى جانـب والـده و هـل يمكـن أن يكـون الشـاب ذا الشـعر الأسـود الفاحـم المنسـدل فـوق الكتفين و القمبـاز الأبيـض المخطـط الـذي تركـه رفاقـه مكومـا» تحـت أسـوار قلعـة الشـهابيين في راشـيا سـوى حمـود . . . و جلـس أبـو حمـود يقـص عـلى ولـده قصـة الثـورة .

كـثرت يـا بنـي المظـالم , سـخرة , غرامـات , إهانـة , تكسـير أحجـار في السـاحات العامـة , جاسوسـية , اسـتعباد , و اسـتبداد , حاكـم أجنبـي , . . . حـاول زعـماء البـلاد التفاهـم , لم يلاقـوا إلا الاسـتخفاف و النفـي إلى أقـصى البـلاد إلى الحسـكة و لم يبـق أمامنـا إلا السـيف . . .

ذبحناهـم في الكفـر , في أقـل مـن سـاعة , و ذبحنـا الألـوف منهـم في المزرعـة و كسـبنا المدافـع و الرشاشـات و الذخائـر . . . و كل أنـواع السـلاح .

و امتـدت الحـرب إلى الغوطـة و الإقليـم و النبـك و حـماة و بعلبـك . . . وفي المسـيفرة كانـت غلطـة , و رائحـة خيانـة , حصدونـا بالرشاشـات , و مدافـع الدبابـات و الطيـارات و مـع ذلـك لم نتراجـع فدخلنـا البلـد في وضـح النهـار نـدوس جثـث رفاقنـا و نتخطـى الأسـلاك الشـائكة و نخطـف السـلاح مـن أيـدي الجنـود في الخنـادق .

و لكـن الخسـائر كانـت كثـيرة و الأرض مكشـوفة لم تسـتطع النجـدات أن تصـل إلينـا انسـحبنا مـع المسـاء و القتـلى في الأرض و القليـل مـن الجرحـى أمكـن إنقاذهـم , و في اليـوم الثـاني كان الدخـان مـن سـهل المسـيفرة يرتفـع إلى السـماء . . . أحرقـوا كل مـن وجـدوه في الأرض . . . كل مـن وجـدوه .

أجج الشيخ النار التي بدأت تخبو و تابع حديثه و هو يمسح بين الحين و الحين الدموع السخية المتدفقة من مآقيه :

- حمود مشي مع حملة الإقليم , كان أول من نصب السلم على سور القلعة . . . و هنا أحس الوالد بأن حنجرته تحترق فتناول الطاسة الكبيرة يغب منها الماء و الدمع معا» في حين استرسل حمد يجهش بالبكاء , وهو يتمتم و يصرف بأسنانه .

لعينيك يا حمود أبشر بالثأر . . . ابشر . . .

و مع طلوع الفجر كان رجلان يخرجان من بيت أبي حمود شيخ و شاب ملتثم و وجهتهما قرية قنوات القريبة من المدينة .

استقبلت أم حمود ولدها العائد بمأتم ضخم اشتركت فيه كل نساء القرية , ندابة تندب بطولة حمود و شبابه , و النساء المتربعات على أرض الباحة المكشوفة الواسعة يرددن بصوت حزين رتيب و هن يكفكفن الدموع بأطراف مناديلهن , و من بطولة حمود تنتقل الندابة تنوح على الرجال الذين سقطوا في الحرب و تنشر مكارمهم واحدا» واحدا» . . . و في حركة خاطفة ودّع حمد أمه , و ألقى من بعيد ,

و من طرف عينه نظرة شوق إلى العروس التي كانت تعصب رأسها بقطعة من قماش أسود و تسترق نظرات الإعجاب إلى الشاب الذي أحبته .

لقد كان العدو يقترب من السويداء , و واجب الدفاع وحده كان يهيمن على مشاعر الناس و يحدد سلوك الجميع بلا هوادة . . .

و في المساء كانت النيران تشتعل في قمم جبال حوران . . . كل القمم . . .

و ذلك يعني أن الحرب قد بدأت . . .

استطاع العدو الزاحف من درعا أن يوهم الثوار بأنه متجه في آن واحد نحو صلخد و السويداء و بذلك تمكن من تجميد بعض القوى في طريق صلخد أو تعويقها عن الاشتراك بالمعركة في الوقت المناسب . . . تقدمت إحدى الحملتين إلى المجيمر و عرى ثم انكفأت نحو رساس - السويداء لتساند الحملة الرئيسية المتجهة نحو المدينة .

كانت خسائر حملة عرى - رساس كبيرة و شجاعة الثوار الذين لاحقوها لا توصف و لكن الحملة تمكنت من أن تتقدم وتؤمن ميمنة الحملة الثانية التي بدأت مدفعيتها تدك خطوط الدفاع الأمامية دكا» في حين كانت قنابل الطائرات تزلزل الأرض و تملأ الفضاء سحبا» عالية من دخان و غبار و رذاذا» من أشلاء و حجارة و دماء . . .

ثبت الثوار في مواقعهم ثباتهم الذي اشتهروا به في تاريخهم الحربي الطويل و استطاع المدفع الذي غنموه في المزرعة أن يخلخل صفوف العدو إلا أن انفجارا» هائلا» دوى من المكان الذي كان جاثما» فيه , و شوهد اللهب و الدخان و أشلاء شخص ترتفع في الفضاء و بدأت ميمنة الثوار تتزعزع فقد اختفت بعض البيارق و شوهدت و هي تنسحب نحو الشمال , و بدأ فكا الكماشة ينطبقان على الثوار من الشمال و الجنوب .

تشبث المدافعون الأشداء بكل جدار , بكل صخرة , بكل زاوية منزل متطرف ركع بعضهم في الأرض العراء , و هم يطلقون النار , و انتضى شاب بعد آخر خنجره يلوح به في الفضاء , و قد نفدت ذخيرتهم .

دفن كثيرون خلف الجدران و الصخور التي اتخذوا منها متاريس , و تراجع البعض و هم لا ينقطعون عن إطلاق النار يقفزون من صخرة إلى صخرة في دفاع يائس مستميت , و ثبت كثيرون و شوهدت الدبابات تسحقهم في تقدمها البطيء الهادر .

و عندما أيقن الثوار أنهم لن يستطيعوا فك الطوق الذي بدأ يضرب من حولهم تراجعوا وهم يدافعون بضراوة و يأس من بيت إلى بيت و من زقاق إلى زقاق , و انطلقوا يهيمون على وجوههم في حقد و مرارة بين أحراج السنديان و في بحر من الحجارة و الصخور نحو الجبال العالية , فرادى و جماعات و قد تخلى الفرسان عن خيولهم للجرحى الكثيرين و تسللوا في الشعاب تطاردهم المدفعية , و تلهو باقتناصهم طائرة بعد طائرة .

لم يستطع أبو حمود أن يحمل البندقية , فقد تحطمت يمينه في المسيفرة , و لكنه استطاع أن ينخي الرجال و أن يحثهم على الثبات و هو يدور عليهم بالماء

, يحمل ذخيرة قتيل إلى جار بدأت ذخيرته تنفد , يعصب الجراح بالكوفيات و شاش العمائم و لا ينقطع لسانه عن ذكر الله إلا ليصرخ مشجعا» .

- عفي النشاما , عفي , اليوم و لا كل يوم . . .

أما حمد فقد صمم على أن لا ينسحب , على أن لا يهرب , ثبت فوق سطح يطل على (السورية) , طالما قفز منه إلى الماء لاهيا» ,رمى فسقط الضابط المتقدم على رأس فصيلة من جنوده استدار الجنود و هربوا إلى زقاق آخر , و برزت فصيلة ثانية و سمع صرخة تأوه ثم صوت جسم يسقط من مكان عال قبالته , ثم آخر و ازداد تدفق الجنود و تسارعهم في اتجاه الشرق , لم يكونوا يتعقبون الثوار المنسحبين بقدر ما كان الخوف و الفزع و الموت يطاردهم في أزقة البلدة الترابية المعرجة .

و عند الظهر كانت القوات تدخل القلعة و أبواقها تدوي بين الطلقات المتقطعة و دوي القنابل المتباعد .

ساد المدينة الخالية الخاوية سكون رهيب , و خيم عليها جو من الكآبة و مرارة الهزيمة و خيل إلى حمد أنه لا ينظر إلى مدينة مغلوبة و إنما إلى فتاة عزيزة عليه تطأطئ رأسها بذل في أعقاب عار فاضح .

و بدأت سحب الدخان و ألسنة اللهب ترتفع في أنحاء متفرقة من المدينة و أحس حمد أن الجيش ينتقم من المدينة الباسلة الشديدة العناد و الكبرياء , و أن دوريات تنظيف البلدة من الجرحى و القتلى بدأت تتجول , فاضطر إلى الاختفاء لأنه لم يشأ أن يموت رخيصا» , و عند المساء كان ينطلق في أحراج هجرتها وحوشها و راحت تطلق عواءها الكئيب المفزع في أجواء المعركة الرهيبة الهامدة .

الفصل الخامس

كان الخامس و العشرون من نيسان ١٩٢٦ ذروة النضال الثوري المسلح , فقد كان لسقوط السويداء و الخسائر المتلاحقة بين رجال الحرب , و الدعاية الانهزامية يروجها العملاء , و للشهور العشرة من القتال الضاري غير المتكافئ , و لحصر الثورة في الغوطة و الجبل , كان كل ذلك و غير ذلك , كافيا» لتحويل المعارك الحربية المقبلة إلى حروب عصابات تغيّر و تختفي , تضرب و لا تسمح للقوات النظامية أن تضربها . . .

كان هم الثوار الأول أن يبتعدوا بعائلاتهم عن الحملات العسكرية التي ستنطلق من السويداء باتجاه الشمال و الجنوب , فكانت اللجاة , المنطقة الصخرية الواسعة التي يستحيل على الآليات أن تعمل فيها و التي تحتوي على عدد كبير من الكهوف و الشقوق الصخرية و التي طالما لجأ إليها أبناء الجبل في حروبهم و اعتبروها قلعتهم , و كانت منطقة الأزرق الواحة الجنوبية البعيدة عن قرى الجبل المأهولة .

ولم يكن وصول العائلات و المواشي إلى اللجاة بالنسبة لقرى الجبل الشمالية و الغربية يشكل صعوبة تذكر إلا أن الرحيل (الهجيج) نحو الشرق و الجنوب مأساة مريرة قاسية لا تزال العجائز و بعض الكهول يسردون بعض فصولها وهم يرددون من حين إلى حين :

- تنذكر ما تنعاد . . .

إنهم في ابتهالهم إلى الله أن لا يعيد تلك المأساة برهبتها و شقائها و مرارتها يعيشون الرعب الذي لم يفارقهم حتى اليوم . . .

طفل على كتف أمه و آخر بين يديها , و بنات و أطفال يرتجفون حولها و هم حفاة في أطمار لا تقيهم برد الربيع الجبلي القارس .

و فارس جريح منبطح على ظهر فرسه معصب الرأس و ساقه تلوح في الهواء . و رجل يحمل رضيعا» و هو يصرخ بأعلى صوته :

لمن هذا الولد يا حريم ! . . .

إنه رضيع هربت أمه مذعورة من قذائف الطائرات المفاجئة و نسيته حيث كانت تستريح من عناء الطريق المصعد القاسي المغطى بالشوك و الصخور , و مجموعة من النساء تحلقن في العراء بقلق و ابتهال , حول امرأة جاءها المخاض فتهاوت وهي تتلوى بمزيج من الألم و الذعر .

و على بضعة خطوات كان رجلان منهمكين في تقليب كومة ضخمة من الحجارة لتواري عن أنياب الضباع جثة لم تزل تختلج .

و خرج يتدلى فوق ظهر حمار تعتليه عجوز عمياء و يطل من جانبيها و من فوهة الخرج آلة خياطة يدوية من جهة و من الجهة الثانية رأسان لطفلين يتموج شعرهما الأسود في الهواء و قد احمر أنفهما , و دمعت عيناهما من البرد .

و على ظهر جمل أثاث البيت : أغطية و فرش و طحين و سجاد . . . و تدلت على جانبيه و عنقه الطناجر و بضع دجاجات , و هو يكاد يجن من حين لآخر كلما أزت طائرة أو قرقعت طنجرة .

الشعاب العالية تسيل بمواكب مهزومة مذعورة , نساء و أطفال و صبايا و جرحى و عجزة ثكالى و ايامي و حبالى و مرضعات , و شيوخ يتسللون بين النحيب و الأوجاع و الدموع , و الخوف و الجوع والبرد و الذعر المفاجئ ، يحرسهم بعض الرجال المسلحين .

أما الرجال الآخرون فقد قتل أكثرهم في معارك السويداء و الغوطة و جبل الشيخ و راشيا أو شوّهوا تشويها» أقعدهم عن حمل السلاح أو تفرقوا في الجبال عصابات عصابات تضرب ضرباتها الأخيرة في عناد يائس .

و في الرابع من حزيران كانت قلعة صلخد تسقط تحت ضربات مدفعية العدو الزاحف .

و في هذه الأثناء رفع شاب وسيم الطلعة لبناني اللهجة يده عالية , في أحد الشعاب الشرقية من الجبل و صاح :

- من يريد أن يتبع عادل النكدي للجهاد في الغوطة .

و انطلق فوق جواده العربي الأشقر يحف به عدد من الفرسان يحدون و يهزجون :

يا فرانسا والله ما نطيع . . .

و في الغوطة تجددت المعارك و تجددت معها بطولات و مكارم و هيمنت من جديد روح الفداء و الاستبشار .

و لكن , ما كاد النكدي يلفظ أنفاسه بين يدي رفاقه و جراحه تنزف حتى تضعضعت الغوطة و شعر حمد و أصحابه بأنهم لن يستطيعوا القتال بنجاح و حماسة بعد أن سقط قائدهم و في هذه الأثناء جاء من يحمل إلى حمد خبر موت أبيه , و تحمل حمد الفاجعة بجلد واضح فقد شغله القتال حتى عن أعز الناس عليه .

و التحق حمد بالثوار المعتصمين باللجاة , ينسف الخط الحديدي و يشتبك في مناوشات خاطفة مع بعض المخافر الأمامية العسكرية و كان الطابع الرئيسي لتلك المنطقة و لتلك الفترة هو طابع الدفاع.

إلا أن حمد لم يرغب في أن يستمر طويلا» في معارك دفاعية و إن تكن ضارية عنيدة يفرضها الزمن و المكان و الإمكان فرضا» على المعتصمين بها .

أليست اللجاة قلعة ؟

كان هو يرغب أن يكون أكثر انطلاقا» و حرية في حركته , فلماذا لا يلجأ إلى الجبال يضرب و يختفي ؟ . . لماذا لا يتصيد العدو تصيدا» , تماما» كما يصطاد الحجل و الأرانب الجبلية ؟ . . .

و كان على يقين من أنه لم يبدع هذه الفكرة , و العصابات في الجبال منتشرة و إن تكن قليلة في عددها و أفرادها إلا أنه كان يحس بأنه منساق عفويا» إلى هذه الطريقة لإرهاق الغاصب الحديث الانتصار , و من ثم للأخذ بالثأر , الثأر للبلد . . . و الأخ . . . و الرفاق . . . و الذراع التي تحولت إلى قطعة من سنديان .

انطلق إلى الجبال و انطلق معه ثلاثة من أصحابه الشباب الأشداء , يضربون و يختفون في الكهوف و في القرى التي بدأ بعض سكانها يستسلمون , تؤويهم و تتستر عليهم .

يظهرون فجأة أمام أسوار القلعة , أو يغيرون بغتة على قافلة تموين أو دورية استطلاع و في كل مرة يتسللون ظافرين , ليختفوا في الشعاب المضيافة المعلقة بالسحاب .

كان حمد و رفاقه يتسقطون الأخبار تحملها إليهم امرأة تجمع بقول البرية أو فلاح عاد يقلب المنساس بعد البندقية و السيف , و كانت الأخبار تصلهم مقتضبة إلا أنها في أكثرها صادقة و مشجعة:

في قرية أبو زريق فاجأت قطعة من الجيش (البارتيزان) بعض الثوار , قتلت منهم وشردت الباقين . . .

- و في قيصما , هزم الثوار العسكر و البارتيزان، و في الصوخر هاجم البارتيزان الباشا سلطان قتلوا فرسه , و كادوا يأسرونه لولا أنه استمات في الدفاع مع رفاقه القلائل . . .

- في اللجاة قام البارتيزان و الجيش بهجمات متلاحقة تساندها الطيارات و المدفعية و لكن دون أن يستطيعوا زحزحة الثوار .

قتل الكابورال محمود الجزائري الذي التحق بالثورة و استولى العدو على رشاشه الثقيل , الذي كانت تعتز به و بصاحبه عصابات الجنوب .

تذكر حمد صديقه الكابورال محمود فبكاه وحيدا» في رؤوس الجبال و راح يستعيد في ذهنه مخيم ميسلون و نبوءة الكابورال الرهيبة :

دماء و خراب و تشرد . . .

و لم يحقد بادئ الأمر على البارتيزان , أولئك الشبان الفرسان , من أبناء بلده الذين تطوع بعضهم في الجيش , كما سبق له أن تطوع هو . . . .

إلا أنه لم يستطع الاستمرار في تبرير خدمتهم للعدو , صحيح أنه هو من الشبان القلائل الذين أغرتهم البدلة و البندقية , إلا أنه لم يكن يخطر بباله

على الإطلاق أنه سيوجه هذه البندقية إلى صدور أبناء وطنه , و عندما وقف وجها» لوجه أمام التجربة استطاع أن ينتصر عليها . . . .

أما هم فإنهم يزدادون عددا» يوما» بعد يوم . . .

لقد كانوا فوق خيولهم العربية , و في منطقة يعرفون شعابها و بطاحها معرفة جيدة , يرهقون العصابات المنتشرة من اللجاة حتى حدود إمارة شرق الأردن يكشفونها و يطاردونها , و يقتلون منها أحيانا « أو يسمحون للجيش المتقدم خلفهم أن يقتل منها . . . .

و هذه أخبارهم في أبو زريق , و قيصما و اللجاة . . .

كان حمد يعرفهم و يعرف طريقتهم في القتال , شاهد بعضهم من عشرين إلى ثلاثين خيالا» يتقدمون على رأس الجيش الفرنسي في معركة السويداء الرهيبة , شعر بالاشمئزاز آنذاك إلا أنه سرعان ما غفر لهم .

ألم يكن هو أيضا» متطوعا في جيش الشرق ؟ . . .

و اصطدموا به و بعصابته غير مرة إلا أنه كان ينسحب و رفاقه بلا مقاومة , لا خوفا» أو جبنا» و إنما تجنبا» لإراقة دماء مواطنين سواء أكانوا مغرورين أو خائنين , و مع الزمن أخذ هذا النوع من الهرب و التجنب يتحول إلى اشمئزاز فحقد , و خيل إليه غير مرة أن يضربهم , أن يتصيدهم تماما» كما كان يتصيد الدوريات العسكرية , إلا أنه كان يفضل دائما» عندما تلوح كوفياتهم البيضاء في الأفق , أن يحيد عن طريقهم و في نفسه صراع . . .

و كان فصل الشتاء فصل هدنة طبيعية , و إن تكن متقطعة بين فلول العصابات و الحملات العسكرية التي تجولت بقوة أثناء الصيف , متغلبة بضخامتها و عتادها على المضايقات المزعجة حينا» و الطفيفة أحيانا» أخرى . . .

و في مطلع ربيع ١٩٢٧ لم تشهد شعاب الجيل غير عصابة حمد ذياب الفار من جيش الشرق مع ثلاثة من رفاقه أحدهم جندي فار مثله , حمود نعيم إبن بلدته و رفيق جهاده . عادوا يتصيدون العدو تماما» كما يصطادون الحجل أو الوحش . . .

و ذات صباح , أزت طائرة خلف السحاب المتقطع , وانطلق منها إلى الأرض ما يشبه القنبلة الصغيرة أخذ يرتفع منها إلى عشرات الأمتار دخان كثيف , و صوبت البنادق الأربعة نحو الطائرة ذات المحرك الواحد و الأجنحة الأربعة إلا أنها كانت قد اختفت بسرعة خلف السحب و القمم .

عرف الرجال الأربعة أنهم أمام عدو مقبل و نظر بعضهم إلى بعض و هم يعتصمون بالصخور الضخمة النائية و قد كان الماء لا يزال متجمدا» في ثناياها , و لاحت من بعيد الكوفيات البيضاء و تطلع الرجال بعضهم إلى بعض , و امتدت أكفهم إلى جرار البارودة و لصقوا بالصخور كأنهم قطع منها , و همس واحد منهم في شبه أمر :

- لا تضربوا الخيالة . . . اضربوا الخيل . . .

و سقطت جياد ثلاثة و هي ترفس الأرض , بعد أن قفز أحدها في الهواء و هو يصهل و ينكفئ على فارسه الذي ظل ممدودا» , في حين تمكن الآخران من أن يخلصا ساقيهما في حركات عصبية مرتجفة . . .

توقف الخيالة فجأة , ثم انتشروا متباعدين و هم يشكلون قوسا» واسعة . و تقدموا ببطء شديد و هم يطلقون النار بلا هدف على أكوام الصخور السوداء اللامعة و سقطت جياد أخرى , و شوهد فرسانها يزحفون في الطين اللزج و هم يشدون على ساق مرضوضة أو ذراع مهشمة . . .

و سمع حمد صوت واحد من رفاقه يهمس : انهزموا . . .

و لكنه لم يهتم به فقد كان يفتش بعيني عقاب عن القبعة الاسطوانية ذات الأشرطة الذهبية , و لكن دون جدوى .

و لم يجد لذلك تعليلا» مقنعا» , فإن مثل هذه الكوكبة من الفرسان لا يمكن أن تخرج إلا إذا كان على رأسها ضابط فرنسي , و هذا التقدم العنيد لا يمكن أن يتم في غياب الضابط الأجنبي . . .

و التفت حواليه فجأة فلم يجد غير الصخور السوداء اللامعة و البرك الصغيرة المتجمدة يئز فوقها و يئن سيل من الرصاص المنهمر . . .

-- سلمّ يا حمد ! . . سلمّ ! . .

و مد حمد يده إلى جناده يعمر بندقيته من جديد , و أحس بشيء كالجمر يخترق كتفه فيسقط المشط من كفه , و يحاول أن يتناول غيره , فتأبى يده أن ترتفع و يحاول ثانية أن يساعدها باليسرى و هو يتمتم :

- اخس يا حمد . . . شد حيلك . . .

و تتكاثر النداءات حوله و تتعالى :

- سلّم يا حمد . . . سلّم بوجه فلان . . .

و يتلمس حمد صدره فإذا كفه ترتفع مضرجة بالدم . و إذا الفضاء يتراقص أمام عينيه بقعا» حمراء و صفراء , و قطعا» من ظلام دامس .

و عندما فتح عينيه على صوت يصرخ بحدة و رجاء :

جندي مون كابتين ! . . . سولدا مون كابتين ! . . .

شاهد فوهة مسدس تتراجع عن صدغه , و عينين زرقاوين تنظران إليه بحقد و حنق تحت حافة قبعة يزينها شريطان مذهبان و قد لفها شال من الصوف الأبيض الناصع . . .

و عندما فتح عينيه للمرة الثانية كانت يدان تصرخان بعنف و قوة عن أعلى صدره كوفية مغمسة بالدم المتجمد , و وجه حليق فوق مئزر أبيض يتفحص الجرح باهتمام ثم تتحرك اليدان من جديد و تتحرك معه يدان ناعمتان و عينان بلون البحر , كان حمد يحس بآلام قاسية لا تطاق , و لكنه لم يسمح لنفسه أن يذل , أو يتوجع , أو يصرخ , كان يعض على شفته حتى يكاد يدميها , أو يغمض عينيه أو يصر على أسنانه في حشرجة مختنقة , كلما غرزت في جرحه العميق آلة حادة أو سكب فوقه كحول يحس معه و كأنه يحترق فجأة .

تمنى غير مرة لو أن المسدس الرهيب لم يتراجع عن صدغه , لو أن جرحه كان قاتلا» لو أن أحدا» لم ينبه الضابط ذا القبعة المختفية تحت الشال الأبيض الناصع إلى أن الجريح جندي فار فيجهز عليه ببرودة و بساطة .

لم تكن آلام الجرح المبرحة وحدها هي التي جعلته يتمنى الموت و يشتهيه و آلام الأسر و القهر أشد مضاضة , إلاّ أنّ البسمة الناعمة و اليد اللطيفة تمسح العرق المتصبب على جبينه و عنقه , و اشتياقه إلى أخبار الأهل , و اعتزازه بأنه لم يستسلم و لم يقتل أبناء وطنه , رغم حقده و اشمئزازه . . .

كل ذلك جعله يتقبل الحياة بشيء من الاستسلام الهادئ ...

و في خلال شهرين , خالهما عامين كاملين وقف حمد في المحكمة العسكرية و يده لا تزال بالأربطة البيضاء فوق صدره .

كان شجاعا» ثابت الجأش , تكلم بانطلاق و بساطة , و أكد للمحكمة , بكل جرأة أنه فضل أن يحمل السلاح إلى جانب مواطنيه , تلقائيا» و بقناعة شخصية على أن يحمله ضدهم , كان يتمنى لو استطاع الثوار أن يخرجوا فرنسا من البلاد بقوة السلاح بعد أن فشلت مساعي السلم , كان الثأر يغلي في عروقه و يدفعه إلى الانتقام للبلد الشجاع المغتصب , للأخ الشهيد و للذراع المتصلبة , و للناس الذين قتلوا أو شردوا دفاعا» عن أوطانهم و عن استقلال بلادهم و حريتها .

كان يتكلم بهدوء , بلا جعجعة و لا تكلف , و ذكر بشئ من الاعتداد أنه لم يسمح لنفسه أن يطلق طلقة واحدة على الفرسان المتطوعة , كان يرمي خيولهم ليرتدوا عنه و عن رفاقه . . .

و كان القضاة ببزاتهم العسكرية الفخمة , و أوسمتهم البراقة الملونة , يتبادلون نظرات تصطنع الهدوء إلا أن بريق الإعجاب الحاقد كان يفضحها بين الحين و الحين .

وقف حمد , غريبا» وحيدا» , لا تشجعه أي لفتة , ينتظر نتيجة المداولة بمزيج من الطمأنينة و القلق . و عندما وقف الجميع يستمعون إلى الحكم المبرم :

- إعدام يخفف إلى عشرين سنة نفي و عشرين سنة أشغال شاقة . . .

أحس بغصّة تخنقه , و بموجة من الحقد الجارف تغمر صدره الجريح . و كاد يتهاوى لو لم يستند بيده الحرة إلى حاجز القفص الخشبي .

- إعدام يخفف إلى عشرين سنة نفي و عشرين سنة أشغال شاقة . . .

و خيل إليه أن حكم الإعدام أخف وطأة و أرحم من هذا الحكم , و لكنه لم ينطق بكلمة , لم يعترض . لم يستعطف بل أسلم نفسه إلى السجان يجره بسلسلة من حديد يطبق طوقها الضيق البارد على معصمه الشديد النحول .

الفصل السادس

كانت صفارات الباخرة تنطلق مبحوحة متقطعة , فيتردد صداها في أبنية المدينة , و التلال القريبة المكللة بغابات الصنوبر .

و كان البخار يندفع أبيض كقطع الغيم ليختنق في الدخان الثقيل الأسود المتصاعد كثيفا» تتسلى الريح بتذريته في الفضاء المتجهم .

و كانت طيور النورس ذات الأجنحة الطويلة القوية البيضاء تحوم بحماسة فوق الميناء , و البّحارة و المسافرون و المودعون و القوارب الشراعية الصغيرة في حركة و ضجة لا تنقطع . . .

و عندما بدأت الباخرة تترنح متأرجحة بتثاقل , و بدأت مقدمتها تشق الموج بدلال و تيه , تغلغلت في العنابر أجساد كانت منبطحة فوق الحديد تلف ذاتها في بطانيات سمراء متهالكة .

كان بعضهم قد جرب البحر , أما الآخرون , فهم لا يعرفون البحر إطلاقا» أو يعرفونه من بعيد .

مئات من السجناء المنفيين تكوموا في عنابر الباخرة , تحت الحراسة المشددة و في ظل أقسى التعليمات , ليساقوا إلى ديار لا يعرفونها و ليقوموا بأعمال لم يستطيعوا أن يتصوروا مدى تحملهم لها, و إلى مستقبل كالح مرير لا يدركون له نهاية و لا يلمحون فيه شبحا» مشجعا» من رجاء .

و بـدأت الحركـة عـلى السـطح تهـدأ , و أحـس السـجناء في قـاع السـفينة بمـا يشـبه الغثيـان و الاختنـاق , و طلبـوا الإذن بالسـماح لهـم في الوصـول إلى المغاسـل . . . اثنـين ! . . . اثنـين ! . . .

صرخ السـجّان بصـوت حـاول أن يودعـه كل معـاني الحـزم و التهديـد و القـوة و تقـدم اثنـان مـن السـجناء نحـو السـلم الحديـدي المعلـق بكـوة صغـيرة في السـقف , و صعـد واحـد تلـو آخـر . . .

كانـت بقـع السـماء تنكشـف شـاحبة بـين الغيـوم الداكنـة المتحركـة المتدافعـة باسـتمرار , و كانـت , الريـح تصفـر بـاردة كئيبـة و الشـمس ترمـي بأشـعتها الباهتـة المحتـضرة بعـض رؤوس الجبـال التـي بـدت بعيـدة و ضئيلـة , و قـد ارتمـى تحـت أقدامهـا خـط متعـرج داكـن تلمـع فيـه بـين الحـين و الحـين بقعـة باهتـة ملونـة . و البحـر الـذي بـدا بالأمـس أمـام ناظـري حمـد رهيبـا» متدافعـا» يـزأر و يتكـسر رذاذ عـلى صخـور الشـاطئ , بـدا الآن أكـثر وقـارا» و أقـل رهبـة , و خيـل إليـه أن لونـه لم يعـد بلـون السـماء .

و في السـفينة ذاتهـا كان المسـافرون قـد اختفـوا مـن الممـرات و إن بـدا بعضهـم أحيانـا» يـسرع الخطـى مـن مقصـورة إلى أخـرى و هـو يشـد بيـده عـلى قبعـة يـكاد يقتلعهـا الريـح أو يغطـي أذنيـه بحافـة معطفـه و هـو يتجمـع بـشيء مـن الارتبـاك و القلـق , أمـا البحـارة فقـد انـصرف كل واحـد منهـم إلى عملـه في حـين ظـل بعضهـم يدخـن غليونـه بهـدوء و هـو يسـتند إلى حاجـز أو سـارية , و يسـبح بنظـره في الأفـق الـذي بـدأ يلفـه ظـلام تلتمـع فيـه مجموعـات كبـيرة ضبابيـة مـن الأنـوار المعلقـة بـين الأرض و السـماء , و يغـرق في ذكريـات ملاهـي بـيروت الصاخبـة و دفء لياليهـا .

و كان السـجّان , و قـد تسـمر حولـه عـدد مـن الجنـود و أيديهـم عـلى زنـاد بنادقهـم يـصرخ بـين الحـين و الحـين :

- انزل بسرعة . . . اطلع بسرعة . . .

ثـم سـاد السـكون مـن جديـد و لم يعـد يسـمع غـير ضربـات الأمـواج تتكـسر عـلى جـدران العنابـر و هـي تحملـق برعـب مهـددة مزبـدة مـن خـلال الكـوى الزجاجيـة الصغـيرة , و يرتفـع بعضهـا في الهـواء معربـدا» ينسـكب رذاذا» كثيفـا» مـن

خـلال الكـوة المعلقـة في السـقف , و انطلـق في ثنايـا ظـلام العنـبر الكئيـب الرطـب المتأرجـح صـوت حزيـن , حزيـن حتـى المـوت :

يا حسرتي ناحت علينا النايحة

و العين تبكي و المدامع سايحة

من بعد طيب العيش والمي الزلال

صرنا نشرب من بحور المالحة . . آه . .

و اختنقت الآه في نشيج متقطع طويل . . .

لم تعـد الأجسـاد الممـددة فـوق حديـد العنابـر تعـرف أيـن هـي و كـم مـن الزمـن مـضى عـلى وجودهـا في هـذا الكهـف الحديـدي المرتجـف , ولم تعـد تعـرف الليل مـن النهـار إلا مـن السـكون الـذي كان يخيـم فوقهـا ومـن حركـة الـركاب المتدافعـة في الممـرات أو مـن وجبـات الطعـام المقنـن الجـاف في أوقـات شـعروا أنهـا ثابتـة

و عندمـا كانـوا يحسـون أن المركـب قـد توقـف , و أن صفارتـه بـدأت تـدوي كانـوا أشـد شـوقا» و تلهفـا» إلى المغاسـل يطلعـون مـن كواهـا عـلى العـالم الـذي تـشرق عليـه الشـمس و يتحـرك فيـه النـاس بحريـة .

كـم كانـوا يـودون لـو اسـتطاعوا أن يقفـزوا إلى ذلـك العـالم الـذي ازدادت ألوانـه بهجـة و حركتـه مرحـا» , و جـوه سـحرا» .

و في غمـرة مـن هـذا الشـعور الممـزوج بجنـون اليـأس كان بعضهـم يقـذف بنفسـه في أمـواج البحـر في غفلـة أو تغافـل مـن حراسـه . و خطـرت لحمـد مثـل هـذه الفكـرة . . .

لماذا لا يضع حدا» مبكرا» للمصير الرهيب الذي ينتظره ؟ . . .

لماذا لا يفوت على جلاديه فرصة تعذيبه و إذلاله ؟ . . .

لماذا ؟ . . . لماذا . . .

إلا أن طيفا» واحدا»يلتثم بمنديل أبيض فضفاض ظل بنظرته المتوسـلة المسـهدة يبخّـر مـن وراء الغيـب كل محاولاته , بهدوء أشـعة الشـمس الجبليـة و إشراقها . . .

تذكر حمد نزهته الخاطفة على شاطئ البحر في بيروت , و هو يتطلع باستغراب و مرح إلى السباحين الصغار , و صياد السمك والموج الفضي اللعوب . . .

آه كم كان البحر جميلا» رائعا» مشوقا» يومذاك . . .

أما اليوم . . . فقد أحس بأنه بشع , متحجر , يستحق كل حقده و نقمته و هذه السفينة التي بدت في أفق الأمس دارة لطيفة سحرية تنزلق و تتهادى بدلال و تيه , بدت اليوم في ناظريه نعشا» كالحا» من حديد يتحرك في المجهول الخانق نحو المجهول الرهيب .

و في المساء أو في ما خيل إليهم أنه المساء كانت تترامى إلى مسامعهم نغمات موسيقا , تضج أحيانا» و تخفت أحيانا» عرف فيها بعضهم أن سهرة راقصة قد بدأت فوق . . .

و كاد حمد في مثل تلك الساعات أن ينسى نفسه فقد كان خياله الشاب يخترق به الكوة المعلقة بالسقف , و ينطلق به إلى ظهر السفينة و يجوس في المقاصير التي لمحها حمد و هو يدفع دفعا» نحو كوة العنبر . . .

كم كان يتمنى لو عرف شيئا» عن حياة الناس الذين يعيشون فوقه , تمنى أن ينظر إلى وجوههم , أن يحدثهم , أن يشاهدهم وهم يرقصون على أنغام موسيقا لم يألفها و إيقاع غريب جدا» عن ألحان المجوز و الشبابة التي تعودها . . .

و تذكر حمد الصور الرهيبة التي كانت ترسمها العجائز لجهنم و الجنة , وهن يتسلين بصنع أطباق القش الملونة تحت شجرة التوت الضخمة , تذكر تلك الصور و أحس أنها قاصرة عن هذا الواقع الذي تحياه عنابر السفينة , و مقاصيرها لولا رائحة الشواء التي كانت تفوح في أحاديث العجائز الجبليات .

كان الطبيب يزورهم من حين إلى حين , و كان يوصي بنقل المرضى من بينهم إلى مستوصف خاص , و كان الذي يرجع منهم يروي لرفاقه شيئا» من العالم الآخر , فوق , شيئا» مشرقا» مثيرا», كله بهجة و مرح و انطلاق . . .

و أحس حمد بدافع جارف يزين له الانتقال إلى المستوصف البهيج و كانت جراحه تسمح له بأن يتراخى فينقل , ولو مؤقتا» , و لو بضع ساعات من هذا النعش المرتجف إلا أن كبرياءه ظلت تأبى عليه أن يتهاوى و هو على عتبة درب شديد المشقة لا يعرف أين و لا كيف ينتهي . . .

و ذات مساء ترامى إلى سمع الأجساد المتقلّقلة في العنابر الرطبة المظلمة أصوات صافرات مبحوحة متفاوتة الأبعاد و النغم و شعروا بحركة ذهاب و إياب و قرقعة خافتة فوق رؤوسهم , و وصلت إلى أنوفهم رائحة الزيوت و الدخان , و الفحم الحجري . . . و ما كادت تساؤلاتهم تبدأ حتى كان السجّان و خلفه ثلة من الجند تطل برؤوسها الفضولية من الكوة و في أيديها رزم هائلة من الحديد الأبيض :

- اثنين . . . اثنين . . .

صرخ السجّان و هو يطل بنصف جسمه من الكوة ثم انتصب و راح يوزع أوامره و تعليماته على الجنود .

راحت القيود الحديدية تستقبل السجناء في حراسة الحراب و الوجوه العابسة الكالحة و أخذت السلالم تصر و تقرقع تحت وقع أقدام متثاقلة تنزلق بحذر و هي تتلمس طريقها نحو الميناء الذي بدا هادئا» ساكنا» في مثل تلك الساعة من الليل , في حين كانت أضواء المدينة تشعشع براقة متراقصة .

كانت سجون مرسيليا تنتظرهم , و ها هو القطار بعرباته الطويلة السوداء , يقلهم نحو القلاع المطلة على المدينة و على الميناء الذي أخذ يبدو غابة من جذوع تتحرك و تتمايل .

عرف حمد سجن الرمل في بيروت . أن سجنه الجديد لا يختلف كثيرا» عنه و إن بدا أنظف و أحسن طعاما» .

إلا أنه كان على ما يبدو سجنا» مؤقتا» أو محطة للسجناء في طريقهم إلى السجون الأخرى.

و في اليوم الثاني وقف السجناء أرتالا» في الباحة العالية الأسوار و انتصب أحد الرقباء يتلو قوائم طويلة من الأسماء و الأرقام .

و لاحت من حمد التفاتة إلى الصف الطويل على يساره و إذ به يحدق في وجه دقيق ذي شاربين خفيفين . . . أنه رفيقه و صديقه في العصابة . . . حمود بن قاسم نعيم (المدير) من السويداء

غير أن العريف لم ينطق بهذا الاسم أو بما يقرب منه , بل طلب من السجناء الذين نادى على أسمائهم أن ينفصلوا عن رفاقهم إلى زاوية نائية من الباحة .

و كان وداع و كان عناق و نشيج في حين كان الحراس المنتشرون بكثرة فوق أسوار الباحة ينظرون بكثير من البرودة إلى هذا المشهد الذي ألفوه من عهد طويل .

سارت قافلة السجناء إلى حيث ينتظرها الأغلال و القطار من جديد .

و كان القطار هذه المرة من نوع آخر , سجون خشبية منفردة ذات كوى حديدية صغيرة يرتبط بعضها ببعض في خط طويل طويل .

جثم حمد في زنزانته الغريبة طليق اليدين إلا أنه عاجز عن الحركة الحرة فقد كان القفص ضيقا» منخفضا» خانقا» وإن ظل هواؤه على شيء من اللطافة .

و ارتعشت العربات و تقلقلت متحركة ببطء ثم انطلقت يشق الأجواء صفيرها الحاد و قرقعة شاحناتها في انطلاقة جنونية نحو المجهول .

لا شيء غير قرقعة و اهتزاز و صفير و برهة توقف ثم انطلاق متقلقل جديد فانسياب و همهمة لا يقطعها غير كوة تفتح في أوقات محددة يرمى من خلالها بعض الخبز الجاف مع قطعة جبن أو علبة سردين .

توقف القطار قبيل المغيب و سمعت ضجة و نداءات و أوامر و قرقعة سلاح متلاحقة في أرجاء المحطة . و من ثم تقدم بعض الجنود و في أيديهم رزم حديدية بينما وقف عدد كبير آخر منهم و أيديهم على أسلحتهم .

كانت العربة تفتح , و يؤمر السجين بالخروج لتتلقفه أغلال الحديد و يقرن بزميل له , و من ثم تؤمر القافلة الطويلة المكبلة بالسلاسل و الأغلال

بالسير في طريق بدا خاليا» إلا من حراس يتجولون و بنادقهم في إيمانهم أو فوق أكتافهم . . . تقدم الموكب الكئيب الرهيب في صمت يكاد يكون عميقا» لولا وقع الأقدام المتثاقلة و التنبيهات الخاطفة الجافة من حين إلى حين .

و عندما كانت الشمس تختفي كان السجناء الجدد يكدسون في عنابر ضيقة رطبة خانقة يتوسد بعضهم بعضا» بلا طعام و لا غطاء و هم يحاولون أن يلوذوا بالنوم الذي استعصى على أجفانهم المسهدة المرهقة .

و كان حمد يستند بظهره إلى الجدار اللزج في محاولة للتخفيف من متاعب السفر الطويل المضني , و كان يغمض جفنيه عمدا» بين الفترة و الفترة , يغريهما بحلاوة النوم و الاستسلام للنعاس , و لكن دون جدوى فقد كانت الذكريات المريرة و المستقبل الكالح و العذاب و الجوع و التعب كل ذلك يشد أعصابه شدا» بخيوط من فولاذ ، و مع الفجر كانت الأبواق تدوي في القلعة الضخمة الواسعة , و كانت الحركة تدب فيها صاخبة متسارعة .

و فتح باب العنبر و نودي على السجناء الجدد واحدا» واحدا» وهم يؤمرون بالإسراع إلى باحة جانبية حيث راح السجّان يقسمهم إلى فرق صغيرة تقف كل واحدة منها باتجاه باب حديدي ضيق منخفض يقف على جانبيه جنديان مسلحان .

و رأى حمد السجّان يأمر السجين الأول بأن ينزع ثيابه , فلم يتردد بل أخذ يخلع معطفه و قميصه و سرواله بشيء من الخفة ثم وقف في شبه استعداد بثيابه البيضاء الداخلية .

إلا أن السجّان راح يصرخ في وجهه بحدة و حزم و هو يأمره بأن يخلع كل ثيابه . . . كلها و أن يكومها إلى جانبه و هو عار . . . كما ولدته أمه . . .

و تقدم أحد العرفاء يرزمها و يربط بها بطاقة دون عليها اسم السجين و رقمه ثم أشار بيده نحو أحد الأبواب الحديدية فانطلق الرجل مهرولا» وهو يخفي عورته بيديه .

كان حمد يرفي هذا المشهد و الغصة تكاد تخنقه و هو يتمنى لو تنشق الأرض و تبلعه قبل أن يأتي دوره و يقف عاريا» أمام هؤلاء الجلادين العديمي الحياء.

و أحس بأن جسده بدأ يتصبب عرقا» باردا» , فمسح جبينه مرة تلو المرة و هو يعض على شفة جافة كاد يدميها .

كان القبو دهليزا» باردا» طويلا» ضئيل النور يفضي إلى باحة ضيقة يتحرك فيها عدد من الجنود , و يحرس مشارفها عدد آخر تلمع حرابهم تحت أشعة الشمس التي بدت ساطعة دافئة , و على باب الباحة الحديدي الداخلي كانت رزمة جديدة من الثياب تنتظر السجين المرتجف العاري , ثياب داخلية نظيفة و أن تكون قديمة و شبه بيجاما مقلمة كأنها جلد حمار وحشي و قطعة من نحاس شبكها السجّان في صدره و عليها رقم طويل لم يعد حمد يتذكره و ربما عمد إلى أن ينساه .

و في وسط الباحة كانت تنتصب كرسي وقف إلى جانبها جندي و في يمينه آلة حلاقة و مقص دقيق شديد اللمعان .

حاول حمد أن يتجاهله إلا أن الجندي نادى بشيء من السخرية :

- موستاش ... و رنت قهقهة ماجنة في جوانب الباحة , و دوى صوت العريف يأمر الجندي الحلاق بالإسراع .

جلس حمد بين يدي الحلاق بهدوء لم يعهده في نفسه , فقد صمم على أن ينقذ شاربيه من ذلك المقص الرهيب إذا هو تظاهر بالوداعة و الاستسلام , و إلا فإن الأمر سيكلفه كثيرا» ...

الشارب يجب أن يسلم , إنه الشرف .

و عندما وقف ينفض الشعر المتساقط على عنقه و منكبيه , تسلل إلى سجنه الجديد و هو يتحسس شاربيه بشيء من الطمأنينة و العزاء .

و ما كاد حمد يعرف أنه في سجون ((نيم)) حتى كان القطار الرهيب ذو الكوى الحديدية الضيقة , ينقله إلى سجن آخر , لم يعد يذكر اسمه تماما» و إنما هو يلفظه ((فونتغرو)) , و من ثم إلى السجن الخشبي ليحمله في رحلة طويلة و يلقي به في سجون مدينة ((بوردو)) .

ها هو الآن على شاطئ الظلمات .

في انتظار رحلة طويلة نحو العالم الجديد إلى منافي الغويان في أمريكا الوسطى .

إن أخبار تلك المجاهل الرهيبة و أساطيرها تملأ السجون رعبا» . و مع ذلك قلائل هم الذين استطاعوا أن يعودوا من تلك الرحلة الجهنمية الملعونة إلا إن تفاصيل شقائها و فظائعها كانت تملأ أجواء السجون .

كانت التعليمات هنا على أشد ما تكون من الحزم و الدقة و القسوة , فالتحدث ممنوع لا كلمة و لا همسة , و إذا اضطر السجين إلى مخاطبة سجّانه صفق مستأذنا» بالكلام .

كان السجناء يجتمعون بكثرة متزايدة في مهاجع واسعة شديدة التحصين قوية الحراسة , فالسجون في (بوردو) هي بوابات جهنم الغويان بل هي محطة تجمع التعساء , من كل أبناء الأمم المستعبدين من حدود الصين حتى المغرب و قلب افريقيا و فرنسا نفسها .

إن بعضهم يكدس الشهور و البعض الآخر السنتين و الثلاث بانتظار دورهم ليشحنوا إلى مناطق الأشغال الشاقة و المنافي , و بانتظار وصول المركب الكبير المخصص لنقل أولئك المعذبين , كانت إدارة السجون تستغلهم في صنع شباك الصيد , فتقسمهم إلى فرق تتناوب العمل في ممر طويل تتدلى على جنباته الخيوط السمراء الشديدة النعومة و المتانة ينتصب في وسطه مشرف أو أكثر يدرب و يحث في هياج دائم و عبوس .

أحس حمد مع هذا العمل بشيء من الراحة و الهدوء اللذين كان يحس بأنه في أشد الحاجة إليهما بعد الأيام القاسية في المستشفى و الأسفار المضنية في العنابر و الزنزانات المتجولة بين مرسيليا و بوردو , و كان يبدو على شيء من الاستسلام إلى القدر , و ربما على بعض الرضى عن نفسه فهو سجين نتيجة أسره في معركة كان يدافع فيها عن حرية بلاده و استقلالها , و هو لم يجبن أو يذل في المستشفى أو في المحكمة و لم يلتمس العفو أو الرحمة من قضاته , و كان يزيده اطمئنانا» هذا السكون الشامل و السكوت المفروض على السجن , فهو بطبيعته ميال إلى التأمل و الاسترسال رغم هذا القيد الثقيل الشرس الذي يكبل قدميه ليلا» نهارا» و رغم ذلك الخبز الشديد الجاف كأنما هو قطعة من حجر طري ,

و مع أنه أحس بأن اللقب الجديد الذي أطلق عليه - موستاش -كان للسخرية إلا أنه شعر في أعماق نفسه بأنه سيظل بذلك أشد اعتزازا» و حفاظا» .

و ذات يوم كان موزع البريد الوحيد في السويداء ينطلق رغم الثلج المتساقط و الزمهرير في أزقة حي (المشنقة) و قصر نجمة و في جيبه رسالة من فرنسا

كتب على زاوية منها :

المرسل , حمد ذياب .

و تربعت المرأة العجوز ذات المنديل الأبيض السميك قرب الموقد و قد شدت لثامها على شفتيها و أنفها و راحت تستمع , إلى الموزع يقرأ لها الرسالة الوداعية بهدوء و صمت كئيب لا يقطعه غير أنة خافتة أو دعاء تخنقه عبرات كاوية .

سيدتي الوالدة الحنونة أدامك الله آمين .

أقبل يديك و أطلب صفو خاطرك و دعاك يا أمي الحبيبة , و أرجو الله أن يكون في عونك و أن يلهمك الصبر الجميل إلى اليوم الذي سنعود فيه بإذنه تعالى إلى أرض الوطن وننعم بلقاء الأهل و الأحباب .

الصبر يا أمي مفتاح الفرج و أنت دائما» كنت تعلمينا ذلك و تشجعينا على تحمل مصائب الدهر و متاعب الحياة .

و أكتب إليك اليوم يا أمي الحبيبة من المركب الذي سينقلنا في صباح الغد إلى البلاد التي تقرر أن نقضي فيها مدة الحكم في المنفى .

نقلنا يا أمي بالبحر إلى فرنسا , و في فرنسا كنا ننقل من سجن إلى سجن حتى وصلنا إلى مدينة اسمها (بوردو) على شط البحر الكبير , و بعد أن مكثنا فيها بضعة شهور صدر الأمر بنقلنا إلى الغويان في اميركا , و في صباح هذا اليوم كان المركب الكبير يقف في وسط البحر كأنه سرايا السويداء أو أكبر , و كان الموج يضرب على جوانبه كأنه يضرب على جبل من حديد و الريح الباردة تصفر و الغيم الأسود يغطي السماء . سرنا في صفوف طويلة و القيود في أيدينا من

سجون القلعة حتى الميناء , و كان الناس ينظرون إلينا بشفقة أحيانا» و بخوف أحيانا» و كان أكثرهم يسير خلفنا باتجاه

(البور) حتى الأولاد تركوا مدارسهم و راحوا يركضون حولنا يتفرجون علينا و أكثرهم يستغربون هذا الموكب من الأسرى .

و في جوانب الميناء كانت تربط طوافات من الخشب كل واحدة منها في حجم عشرين لوح أو أكثر من ألواح الدراس .

ركبونا فوق هذه الطوافات و الحديد في أيدينا و أوصلونا إلى سلالم المركب و في أسفل السلم كان بعض الجنود يقفون لفك أغلالنا قبل الصعود إلى ظهر الباخرة .

و كثير منا بقي في يديه بعض قطع الحديد من العجلة , و كنا نتعاون على فكها و التخلص منها و رميها في البحر .

و تجمع الناس على الشاطئ و هم يلوحون بأيديهم و برانيطهم و مناديلهم لنا يودعونا و منهم من كان يبكي يا أمي , و كنا نحن نلوح بأيدينا و نودعهم , و بعد قليل يا أمي سينزلوننا إلى عنابر السفينة و سنمضي في البحر شهرا» أو أكثر لا نشاهد غير جدران الحديد و السقف الحديد و الأرض الحديد .

يا أمي لا أستطيع أن أوصيك بكل ما يجول في خاطري و إنما أطلب إليك أن تهتمي بأخي الصغير الذي تركته يرضع و الذي لا أعلم إذا كنا سنلتقي في هذه الدنيا أم لا . و إن كان أملي في الله قويا» بأننا سوف نلتقي جميعا» .

و أرجوكي أن تبلغي البنت أن حمد يعزها و أنه يتمنى لها كل خير وسعادة و لكن ربما طالت سفرة حمد فلا يجوز أن أحجز حريتها و لأهلها الخيار في تزويجها لمن ترغب فيه رغم أني كنت أتمنى أن تكون نصيبي .

يا أمي الحبيبة :

أرجو أن تتحملي بشجاعة غياب حمد بعد أن فقدت والدي و حمود , و أن لا تقطعي الرجاء من عودتي , و إني واثق من الله سوف يستجيب دعائي و دعاءك في اللقاء .

و ربما ألح عليك يا أمي بعض الأهل و الأصدقاء لتقدمي طلبات استرحام أو لتذهبي و تستعطفي الحاكم .

أتمنى يا أمي أن لا تتذللي لغير الله و لا تستعطفي غير الله لأنني لم أقم بحول الله بأي عمل يخل بالشرف و الناموس .

يا أمي سوف تصلك هذه الرسالة و الناس في السويداء على عادتهم يجرفون الثلج عن السطوح الترابية و هم يهزجون و يفرحون , و ينتظرون مع هذا الكفن الأبيض عودة الربيع الزاهر الأخضر الجميل , و لي رجاء و ثقة بالله تعالى بأن قلبك يا أمي الحبيبة سيعود إليه الربيع الجميل الأخضر عندما يعود حمد و يلاقيه الأهل و الأصحاب بالأهازيج و الحدا .

أقبل يديك يا أمي ألف مرة و سلامي إلى أخي الذي لا أعرف اسمه حتى الآن و إلى أخواتي الصغيرات و عسى أن يردنا الله إليكم سالمين آمين .

حمد

الفصل السابع

كانت الشمس الإستوائية المحرقة اللاهبة تتوسط السماء الشديدة الزرقة و الصفاء . عندما أخذت الطوافات الخشبية تنقل المنفيين الجدد ذاهبة آبية بين البر و الباخرة التي كانت تدوي و تنفث دخانها الأبيض كأنما هي تلهث من رحلتها المملة الطويلة المرهقة .

و اصطف السجناء في رتل طويل مزدوج و في ظل حراسة مشددة و انطلق صوت حاد ينثر التعليمات و هو يتوقف بين الحين و الحين متسائلا» عما إذا كانت قد وصلت إلى الجميع .

و من ثم أمرت قافلة الرقيق بالتحرك .

و تحركت الأقدام متثاقلة وقد أضنتها رطوبة العنابر و الانطواء , و تمايلت

الأجساد و الرؤوس في وسن و خمول و تدلت الأيدي متراخية كأنها خرق طويلة من قماش وهي تمسح في حركة بطيئة دائرية حينا» بعد حين الجباه التي بدأت تنضح بالعرق اللزج .

كان الطريق ممرا» يكاد يكون مظلما» رغم الظهيرة و قد انتصبت على جانبيه جدران عالية من جذوع و فروع باسقة تدلت منها مئات الحبال و الألياف معلقة في الهواء أو مختفية في أحضان الأشجار السامقة أو غارقة في جنباتها بين الهشيم و الأغصان اليابسة المكدسة .

كان الجو حارا» خانقا» بالرغم من الظلال الوارفة عندما تلبدت الفرجات السماوية التي كانت تبدو أحيانا» من خلال الأشجار و انهمرت الأمطار سخية فاترة إلا أنه سرعان ما عاد إلى السماء صفاؤها و رونقها , و سرعان ما عاد إلى الثياب المبللة و الأرض المكشوفة النادرة شيء من جفافها .

توغلت القافلة الخرساء في سيرها الكئيب المتثاقل خلال الممر الضيق الكثيف الظلال يهزها صوت حارس معربد أو يثير انتباهها و استغرابها و أحيانا» فزعها قرد يقفز في ضوضاء و صخب من فوق رؤوسها أو أفعوان ضخم يتدلى و يتأرجح في نهم و تكاسل .

و انفرجت الغابة العذراء عن باحة واسعة من الأرض العراء تطوقها من كل جانب الخضرة الكثيفة الداكنة العالية و تنتصب في أرجائها مجموعات من الأبنية و الأسوار المتباينة .

هنا فيلات على غاية من الرشاقة و الجمال تزهو شرفاتها بالأزاهير و المظلات المتعددة الألوان , و يبسم قرميدها الأحمر الذي زاده مطر الظهيرة نظافة و رونقا» , و تبرز من نوافذ بعضها رؤوس نسوة بشعورهن الذهبية أو الفاحمة و هن يتطلعن بمزيج من الإشفاق و الشماتة إلى القافلة الطويلة الذابلة .

و هناك سور ضخم بلا كوى يرتفع بضعة أمتار و تلتمع فوقه ألوف من قطع الزجاج المختلفة الألوان و الحجوم من بقايا قناني النبيذ , و هي تبدو على غاية من الشراسة , و كأنها أنياب وحش أسطوري يفتح فكه الرهيب في الجو الواسع بانتظار فريسة تهبط عليه من السماء ، و هناك ثكنات ضخمة متباعدة

و متقاربة تلمع ألواح (الزنك) في سقوفها تحت أشعة الشمس فوق كوى ضيقة عالية تشتبك فيها قضبان الحديد الثخينة , و ترتفع خلفها و حولها أبراج عالية ضيقة تطل منها حراب و بنادق و وجوه بادية التجهم و العبوس .

صرت البوابة الحديدية الضخمة و هي تفتح على باحة مكشوفة واسعة و بدأت القافلة تدخل في سكون و ذل , و راح بعض ضباط الصف يوزعون عليها الأرقام النحاسية الضخمة و يشبكونها فوق الصدور المتأججة حقدا» و مرارة , و من ثم انطلق صوت رهيب خشن يوزع التعليمات الجديدة و يأمر الحراس بسوق المساجين إلى العنابر المخصصة .

و ما عتمت الساحة أن عادت خلاء هامدة في حين بدأت ضجة خافتة في العنابر الواسعة القريبة , يتخللها صراخ حانق أو تهديد .

قبع حمد فوق بطانيته السمراء في زاوية من زوايا المهجع الواسع يخلع حذاءه واجما» و يستعد للاستراحة بعد أن قضى في نعشه المتحرك شطرا» من الزمن لم يعرف كم طال و بعد أن سار هذه المسافة المرهقة الرهيبة بين الميناء و المعتقلات مثقلا» بذلة الأسر غارقا» في دوامة هائلة من الأفكار السوداء , و راح يتفرس في وجوه رفاقه و قد ألقت على بعضها الكوى الضيقة العالية حفنة من ضياء الأصيل .

كان أكثرهم من المغاربة بوجوههم السمر الواضحة السمرة و آثار الوشم الأزرق على الذراع و الوجه , و كان الباقون من أمم شتى و مناطق شتى بقامات مديدة أو قصيرة و شفاه ضخمة منتفخة أو رقيقة ناعمة و عيون مشقوقة مائلة و خدود ناتئة .

و قدر حمد عدد رفاقه في هذا المهجع في حدود المئة و راح يراقبهم وهم يفرشون الأرض الخشبية ببطانياتهم استعدادا» لليل الذي بدأ يقبل .

و فجأة صر المفتاح الضخم في الباب الحديدي و انفتح على حلة ضخمة يحملها جنديان و عدد كبير من الصحون النحاسية الصغيرة و راح أحد الجنود يسكب فيها بعض المرق الساخن .

وزعت الصحون و الملاعق على السجناء ثم أغلق الباب من جديد و اختفى وقع أقدام الجنود مع آخر أشعة الشمس في المهجع .

حرك حمد المرق الأسود و رفعه إلى أنفه يشمه , إنه شيء من العدس و لكن رائحته لا تشجع فلعل مذاقه مقبول . . .

و رفع الملعقة يتفحصها قبل أن يقربها من فمه , فلم يستطع أن يميز فيها العدس من المرق و حاول أن يتحسسها في الظلمة الخفيفة بيده إلا أنه عاد فادخل طرف الملعقة إلى فمه بشيء من التردد و التقزز و راح يمضغ الحبات النادرة بشيء من الحذر خوفا» من الحصى التي لم تكن غريبة عن مطابخ السجون و توقف فجأة مرتبكا» و قد أحس بشيء بل أشياء تسحق بين أسنانه لا هي عدس و لا هي حصى أو تراب .

أعاد الملعقة إلى الصحن و كاد يبصق فوقه إلا أنه تحامل على نفسه و ابتلع بكثير من الجهد ما في فمه من مرق و عدس و سوس .

و تطلع حوله فرأى بعض رفاقه وهم يغرفون ما تبقى في صحونهم , في حين بقيت صحون كثيرة كأن يدا» لم تمسها و قد تمدد أصحابها و هم يتحدثون بصوت خافت كأنه الهمس أو يعلقون أبصارهم في السقف الحديدي و يسبحون في عالم من الذكريات .

و انطلقت صرخة أعقبتها شتيمة و قد وثب أحد الرجال و هو يدوس برجله العارية عقربا» كانت تحاول أن تفر هاربة و تختفي بين شقوق الخشب .

و ساد هرج و تساؤلات أعقبها جو من الخوف الممزوج بكثير من الاشمئزاز و انطلق الرجال يقلبون أغطيتهم و يفتشون بين الثقوب عن تلك الحشرات الملعونة الغادرة .

و توقفت حركة التفتيش عندما انقض من إحدى الكوى خفاش كبير كأنه الغراب يضرب بجناحيه الهواء و ينقلب كالبهلوان يتعلق حينا» بالسقف و يملأ المهجع بحفيف جناحيه أحيانا» كثيرة .

و عندما بدأ بعض الرجال يحاولون الاستسلام إلى النوم كانت أفواج البعوض تطن طنينا» مزعجا» مرهقا» و كانت خراطيمها تلذع كاوية محرقة , و

من ثم تفر هاربة أو تسحق تحت كف ضخمة حاقدة , ظلت تتربص بها فترة من الزمن بصبر عجيب .

كان الجو حارا» خانقا» تزيده أنفاس الرجال في المهجع و روائح عرقهم و أحذيتهم ضيقا» و انقباضا» و يهيمن فيه القلق و الأرق و الانتفاضة الحانقة المفاجئة و الشتائم الخافتة .

و كان حمد يرقب بعينيه تململ رفاقه فوق أغطيتهم و حركات أيديهم و هي تهوي على الخد أو على العنق , و ارتفاع ساق بغتة في الهواء تطرد بحنق صارخ أو مكبوت حشرة لا يدري ما هي أو ذلك الخفاش الذي راح يتلهى بعض أقدامهم و من ثم بالتحويم البهلواني في فضاء المهجع الدافئ.

و رويدا» رويدا» استسلم بعضهم لنوم ثقيل أو مقلقل و ظل الباقون في محاولاتهم اليائسة للإغفاء و قد أرهقت أجفانهم مطاردات الخفاش و البعوض و ضغط الذكريات المشوشة و التفكير في غيب الغد الأسود المرير .

و مع خيوط الفجر بدأ جرس يقرع قرعا» عنيفا» متواصلا» , و بدأت المهاجع تفتح و الحراس يتنادون و التعليمات الخاطفة توزع هنا و هناك بحزم و خشونة .

و انطلقت فرق السجناء , فرق من أربعة أفراد إلى اثني عشر يصحبهم حارس مسلح أو أكثر دون أن يسمح لهم بغسل وجوههم و دون أن تقدم لهم كسرة طعام .

و في الطريق نحو الأبواب الخارجية كان الحارس يشرح لهم المهمة الجديدة و الوضع الجديد :

هذه الجزيرة كلها معتقلات , كثيرون حاولوا أن يهربوا إلا أنهم اضطروا إلى العودة لأنهم لم يجدوا لهم ملجأ غير الغابات بوحوشها و أفاعيها و حشراتها السامة ، و بعض السكان المتوحشين الذين لا يقبلون بينهم الغريب , و لم يجدوا ما يأكلونه إلا بعض الثمار البرية التي كانوا يعيشون عليها الأيام الأولى ثم يبدأ الجوع فالموت البطيء فالاستسلام .

العقوبات هنا قاسية و زنزانات منفردة و حديد و أحيانا» الموت , و الطاعة هي أفضل وسيلة في حياة المعتقل ! . . .

و على مقربة من الأبواب الخارجية كانت الفؤوس و الحبال و الأحزمة الجلدية توزع من المستودعات على فرق المساجين الذين كان يسوقهم حراسهم نحو الأدغال القريبة اللامتناهية .

ما كاد حمد يجتاز البوابة الحديدية الجانبية مع رفاقه الثلاثة و السجّان حتى وجد نفسه يختفي وسط الرطوبة و الظلال . . .

- اتبعوني . . .

صرخ الحارس بصوت منخفض و هو يتلفت بحذر و ارتياب و سار الرجال الواحد خلف الآخر في صمت عميق , يد تسند الحبال و الأحزمة الملتفة حول الكتفين و يد تحمل الفأس الرهيفة الثقيلة .

بدأت الأفكار السوداء تهز حمد هزا» و تغريه بأن يضرب ضربة واحدة و إذا هو و رفاقه طلقاء في الغابة العذراء .

الفأس رهيفة ماضية , و الغابة واسعة ظليلة و لكن . . . سرعان ما بدأت تلك الأفكار الدموية تتلاشى كلما تقدم الموكب الصامت في أحضان الغابة الرهيبة , فالسجن أرحم ألف مرة منها و أكثر بشاشة و أنسا .

الهشيم و الأغصان اليابسة تتكسر تحت أقدامهم فتتململ الأفاعي الراقدة و تتراجع أو تتطاول بأعناقها بتثاقل و غضب , و قد تتدلى متأرجحة في السماء باحثة بعينين واسعتين و فم لاهث عن فريسة، حتى الطيور الغريبة الزاهية الألوان لم تكن تضفي على الغابة أي بهجة و هي تتحرك ببرودة و تملأ الفضاء بأصوات حادة مزعجة كأنها صراخ طفل مرتعب .

هشيم و حبال متدلية و ألياف و جذوع سامقة يلز بعضها لزا و سماء من أغصان و أوراق داكنة و ظلال كثيفة و أفاعي و طيور غريبة تنعب , و عرق لزج , و خطوات في حذر و ريبة , و أرق و جوع و عطش , و متاعب سفر مرهق في عنابر حديدية رطبة . . . كل ذلك كان يضفي على القافلة منظر الموكب الجنائزي .

توقف الحارس و أشار إلى جذع شجرة أملس ضخم يرتفع عدة قامات في الهواء كأنه اسطوانة من رخام أسود .

و بدأ يشرح للرجال طريقة العمل :

- يقف واحد من هذه الجهة , و آخر من الجهة المقابلة , و يبدأ العمل و عندما تميل الشجرة يهرب الرجل و هو يصرخ محذرا» بصوت عال عال , بكل ما في قوته .

و انتقل السجّان خلال الأشجار الكثيفة الضخمة الضاربة في السماء إلى شجرة أخرى تبعد عشرات الأمتار , و أشار إلى اثنين من المساجين الأربعة بالعمل .

رفع حمد الفأس و بدأ يهوي بها على الجذع الأملس الذي بدا بصلابة السنديان و لكنه راح يزداد صلابة و مقاومة بعد كل ضربة .

رفع الفأس و مر بأصابعه عليها فإذا هي رهيفة ماضية , و هز ساعديه تحسسهما فإذا هما , رغم الجراح القديمة و الأسفار المضنية و الآلام المريرة , لا تزالان قادرتين على العمل و إن كان العمل شاقا» متعبا» . . . الخشب إذن هو الذي لم يكن يسمح للفأس أن تنال منه إلا القليل القليل , و بدأ العرق يتصبب و راحت الكف تمسح الجبين باستمرار و أخذ السجّان يتنقل بين الفرقتين و هو يحث و يدمدم . . .

و قبيل الظهيرة دوت صفارات العودة إلى المعتقلات و بدأت تتوافد الفرق الجائعة اللاهثة من شتى أرجاء الغابة لتلتهم قطعة من خبز جاف بحجم الكف و شيئا» من الرز المسلوق و المرق , و لتستريح ساعة من الزمن أو ساعتين , ثم تساق بعدها على عجل إلى استئناف أعمال الصباح , و من ثم تعود إلى مرق العدس و السوس و المهاجع الواسعة الخانقة , حيث ترتع العقارب و الخفاش و تطن أسراب البعوض وهي تلسع و تؤرق .

ومع الفجر كان الجرس يقرع بعنف فيدوي صداه في أرجاء المعتقلات و الغابات اللامتناهية و تنطلق فرق الأشغال الشاقة لاستئناف أعمال الأمس بفؤوسها و حبالها و أحزمتها و لكن دون أن يسمح لها بالغسيل أو الطعام . . .

و عـاد حمـد و رفيقـه إلى الشـجرة ذاتهـا التـي لم يسـتطيعا يـوم أمـس أن يرمياهـا أرضـا» . . .

و هـا هـما الآن يسـتأنفان العمـل بكثـير مـن الجـد و الاهتـمام و قـد عـز عليهـما أن يطـول عصيانهـا.

و التفـت حمـد و هـو يلهـث في اتجـاه رفيقيـه الآخريـن البعيديـن و قـد دوى صـوت السـجّان بشـتيمة أعقبتهـا ضربـة مـن حذائـه عـلى مؤخـرة واحـد منهما .

و أحـس حمـد بـأن الـدم يغـلي في عروقـه و بـأن صـدره أخـذ يضطـرم حقـدا» و أن الفـأس تـكاد تقفـز مـن بـين يديـه لتـضرب ذلـك الجـلاد في وجهـه ضربـة واحـدة . . . و لكنـه عـاد إلى عملـه الشـاق الرتيـب و هـو يتمتـم بينـه و بـين نفسـه : إن رفيقـي رجـل مثـلي و معـه فـأس . . .

و أهـوى بـكل قوتـه عـلى قلـب الشـجرة فـإذا الـشرر يتطايـر منهـا و تـكاد الفـأس ترتـد إلى جبينـه و خيـل إليـه أن الجـذع قطعـة مـن حديـد و أيقـن أن العنـف لا يجـدي معـه بقـدر مـا تجـدي المواظبـة .

و عنـد الأصيـل كانـت الشـجرة العملاقـة تميـل ثـم تهـوي في فرقعـة هائلـة و هـي تحطـم الأغصـان الضخمـة والحبـال و الأشـجار الفتيـة وتفتـح في وجـه الشـمس فرجـة ضيقـة طويلـة لـن تلبـث أن يسـدها تشـابك الأغصـان الوارفـة والشـجيرات الناميـة المتعانقـة .

تراكـض السـجّان و السـجناء و هـم يصرخـون بذعـر و هلـع و كأن العمـلاق الهائـل يهـوي عـلى أعناقهـم .

و ذعـرت معهـم طيـور الغابـة فأجفلـت و هـي تزعـق , و تململـت الأفاعـي الشـديدة الكسـل و قـد ارتجـت الأرض مـن تحتهـا و راحـت تنسـاب هاربـة أو تـزداد تشـبثا» بأغصانهـا .

و أحـس حمـد في المسـاء بجـوع ملحـاح فأغمـض عينيـه و راح يكـرع المـرق مـن الصحـن بـلا توقـف و مـن ثـم استسـلم إلى إغفـاءة لذيـذة عميقـة كانـت تغمرهـا أطيـاف وطـن حبيـب و رنـين مهبـاج و بسـمة صبيـة سـمراء واسـعة العينـين تتكـئ على نافـذة بيتهـا و هـي تنتظـر مـن وراء الغيـب قـدوم حبيبهـا , و أغـاني أم تهدهـد طفلها

في السريـر الخشـبي القديـم :

نام يا حبيبي نام خيّك راجع يا سلمان . . .

و عندمـا راح جـرس المعتقـلات يقـرع بعنـف مـع خيـوط الفجـر الجديـد كان حمـد يتمطـى و كأنـه يرغـب في العـودة إلى النـوم , إلا أنـه اسـتطاع أن يقتلـع نفسـه مـن بطانيتـه في وثبـة شـابة و انطلـق و هـو يفـرك عينيـه نحـو مركـز التجمـع , بـلا غسـيل و بـلا طعـام .

و في الغابـة كانـت ضربـات حمـد تنهـال عـلى جـذع شـجرة ثانيـة في مثـل صلابـة الأولى و ضخامتهـا , عندمـا أحـس بكـف تربـت عـلى كتفـه , فالتفـت التفاتـة شـبه مذعـورة و إذا هـو وجهـا» لوجـه أمـام سـجّانه و قـد رفـت بسـمة مشـفقة عـلى شـفتيه الجافتـين :

- من أي بلاد أنت يا رجل ؟ . . .

تطلـع حمـد بكثـير مـن الاسـتغراب و هـو يحـاول أن يكتشـف الغـرض مـن ذلـك السـؤال , إلا أن النظـرة المشـجعة مـن السـجّان جعلتـه يتمتـم و هـو يمسـح العـرق المتصبـب مـن جبينـه و عنقـه :

- من سورية يا عريف , من بلاد الشام . . .

- كم سنة أنت محكوم بالأشغال الشاقة ؟ . . .

- بعشرين و عشرين نفي .

- كم سنة قضيت منها ؟

- سنة واحدة تقريبا» .

سـكت العريـف قليـلا» و هـو يتأمـل ذلـك الوجـه الـذي بـدأ يشـحب و الشـاربين الغزيريـن و الفـأس التـي كانـت تسـتند عليهـا ذراع يطـل منهـا أثـر جـرح قديـم عميـق ثـم جمجـم و هـو يغـرق عينيـه في عينـي حمـد

- و هـل تعتقـد أنـك تسـتطيع أن تنهـي التسـعة عـشر عامـا» الباقيـة حيـا» و أنـت تبـذل هـذا الجهـد اليومـي القـاسي ؟

و أجاب حمد و هو لا يزال يمسح عرقه المتصبب :

أعتقد أن الموت أهون علي من أن تضرب قفاي ضربة واحدة بحذائك يا عريف ! . .

و انتظر حمد مع فجر اليوم الخامس من وصوله إلى المعتقل طنين الجرس العنيف و طال انتظاره إلا أن شيئا» من ذلك لم يحدث .

و مع إشراقة الشمس فتح الباب و وقف في أول الممر الطويل في المهجع أحد العرفاء و أمر السجناء بالوقوف و الإصغاء , و من ثم راح يلقي التعليمات المتعلقة بيوم الأحد , يوم الراحة الأسبوعية و هو يتوعد و يتهدد بأقصى العقوبات لأي مخالفة أو سوء استعمال .

و قبل أن ينصرف كان أربعة من الجنود يفتحون المهجع و هم يحملون أكداسا» من الأقمشة الملونة , و راحوا يوزعونها على السجناء الذين أمروا أن يظلوا في وقفة الاستعداد فوق بطانياتهم , و حتى يتم توزيع الألبسة الجديدة بالإضافة إلى الأحذية الخشبية .

و ما كاد التوزيع ينتهي حتى صرخ العريف صرخة دوى لها المهجع :

- سلموا ثيابكم و أحذيتكم كلها و البسوا الثياب الجديدة فورا» . . . و بسرعة

و راح الرجال يتعرون و هم وقوف و من ثم راحوا يرتدون الألبسة الجديدة :

بنطلونا» و قميصا» من قماش واحد ذي دروب أفقية ضيقة حمراء و بيضاء , و قبعة واسعة من القش .

و ألقى حمد نظرة على زيه الجديد و من ثم على منظر رفاقه المئة و هم يكومون ثيابهم القديمة فكاد ينفجر ضاحكا» من ذلك المنظر الغريب و قد خيل إليه أنه في مستشفى المجانين أو في كهف من كهوف الجن و العفاريت .

و من جديد دوى صوت العريف يأمر بأن يحمل السجناء ثيابهم إلى المغاسل . و في باحة واسعة عالية الأسوار تجمع السجناء , و بريق الاستغراب

و الاستهجان يشع من نظراتهم و بسمة مداعبة مكبوتة ترف على شفاههم , و توزعوا على مغاسل واسعة مكشوفة و انهمكوا في تنظيف ثيابهم و هم يتمتمون أغاني خافتة كلها شوق و حنين و شكوى , في حين تمدد بعضهم الآخر يحرسون ثيابهم الرطبة المنشورة فوق الأسلاك الشائكة .

أضيف إلى الغداء قطعة جبن , و سمح للسجناء أن يتجولوا في الباحة الضيقة حول المغاسل, فكان حديث و عناق و تعارف و سادت همهمة كدوي الخلية من حلقات متلاصقة متماوجة , ارتفع في واحدة منها صوت خافت حزين:

وصلت بلاد جدي ما وصلها و شفت عباد ما بعرف أصلها

بلاد العرب لازم أن نصلها و نلاقي العدا يوم الطراد! . . .

الفصل الثامن

مضت الشهور الطويلة مملة مرهقة , جرس يقرع قرعا» عنيفا» مع الفجر ثم انطلاق نحو الغابات العذراء بلا طعام و بلا غسيل ثم استراحة و غداء فعودة إلى الأشغال الشاقة في الأحراش فحساء من عدس كريه المذاق و الرائحة , فاستلقاء فوق بطانية في انتظار لسعة عقرب و عضة خفاش و طنين البعوض و طعن حرابها الدقيقة المحرقة السامة .

و في اليوم السابع غسيل و حراسة و قطعة جبن إضافية , و ذات يوم أحس حمد بأنه مقبل على عمل جديد , فقد سار ذلك الصباح مع فرقة من اثني عشر رجلا» و توغلوا مسافة غير اعتيادية في الغابة العذراء .

أمروا بالتوقف فالإصغاء إلى التعليمات الجديدة : طريق بعرض ثلاثة أمتار يجب أن يشق خلال الغابة لجر الأخشاب نحو الميناء .

و راح العريف يرسم الاتجاه و يحدد نقطة البدء و يوزع السجناء فرقا» صغيرة متباعدة في خط واحد مستقيم .

و راحت الفؤوس تهوي فتقطع الحبال المتدلية و الشجيرات الصغيرة النحيفة و الأعشاب المتشابكة و من ثم تدوي ضرباتها رتيبة جافة فوق الجذوع.

و في غمرة العمل أحس حمد بأن حذاءه الخشبي الجديد يضايقه مضايقة شديدة و قد أدمى عقبه بحده القاسي , فانحنى يخلعه و يعود إلى العمل حافي القدمين .

تقدم السجّان و ربت على كتفه و هو يبتسم ابتسامته القديمة المشفقة :

- اسمع يا دياب , أنت رجل كويس و أنا أشفق عليك و أنصحك , لا تخلع الحذاء من رجلك في هذه الغابات دقيقة واحدة : الأفاعي و العقارب و الحشرات السامة كثيرة , و التراب الذي يلصق بالقدم يسلخ جلده مثل حروق النار , و في الغابة حشرات مثل البرغوث تغرز تحت أظافر القدم و تدخل تحت الجلد , حتى العظم , تفقس و تخرج منها ديدان تثقب الجلد و تسبب المرض الشديد و أحيانا» تسبب قطع الساق أو القدم . . .

فتح حمد عينين مشدوهتين و ظن أن في الأمر تهويلا» أو أسطورة إلا أن نظرات الحارس كانت صافية صادقة , ألم يقدم إليه سيكارة ذات يوم و يطلب إليه أن يستريح و يحدثه عن أسباب نفيه و عن أهله و وطنه و أمه و أخيه الصغير الذي لا يعرف اسمه حتى الآن ؟ ! . . .

و طال العمل عدة شهور جديدة شاقة رتيبة لا يخفف من سأمها غير جماعة من القرود الحمر تزعق صاخبة مكشرة عن أنيابها و هي تقفز رشيقة بين الأغصان تتأرجح بإحدى قوائمها حينا» و بذيولها الطويلة أحيانا» كثيرة , أو تتلهى بتنظيف شعورها بعناية و اهتمام في فرجة تغمرها أشعة الشمس الشديدة الدفء , تحضن صغارها و تلاعبها و تمسح لها بحنان و هي تتعلق بأعناقها متأرجحة .

ما أسعدها ! إنها في أوطانها و بين أهلها تلهو و تصخب . و لعلها تهزأ من أولئك العفاريت الغرباء الملونين الذين لا ينفكون عن مسح عرقهم المتصبب و هم يلهثون في عبوس صامت في ظل السياط و الشتائم . و لم يندر أن يطلق أحد الحراس النار على أفعوان من نوع (البوا) , كأنه جذع شجرة فيتدلى و هو يفتح شدقه الواسع المفزع ثم يسقط بجلبة رهيبة فوق الهشيم و الأغصان اليابسة المكدسة .

و لا تلبث أن تطل من خلف الجذوع السمراء وجوه نحاسية شبه آدمية أفزعتها الطلقة المدوية فراحت تتطلع مذعورة و من ثم تنطلق هاربة تتصايح و هي تلمح من خلال الغابة الشديدة الكثافة عارية ملساء كالأبنوس تلمع تحت أشعة الشمس .

كان وجود هؤلاء الآدميين المتوحشين العرايا يثير فضول السجناء الذين كانوا يحاولون الاقتراب منهم إلا أنهم كانوا يفرون مذعورين كأنهم يهربون من وحوش مفترسة أو من أرواح شريرة أسطورية .

و لم يستطع حمد أن يدرك مدى سعادة هؤلاء الزنوج البدائيين إلا أنه كان يحسدهم على حريتهم الواسعة المطلقة و إن كان يشيح بوجهه بمزيج من الغيظ و الحياء عندما كانت تلوح من بعيد النهود السمراء العارية لتختفي في فرارها الفجائي المذعور .

و مع الزمن شق في الغابة ممر جديد ظليل طويل , تكومت على جانبيه الأشجار و الأغصان و الألياف و سمح للسماء أن تطل و لشريط ضيق من الأرض أن تلثمه أشعة الشمس لأول مرة منذ الأزل .

شعر حمد بأن عدد رفاقه يتناقص , بعضهم لم يعد حتى الآن و بعضهم يتردد على المستشفى و هم يشكون الملاريا بين الحين و الحين و حوادث العمل و مع ذلك فإن فرق الأعمال لم تتأثر تأثرا» ملحوظا» بذلك النقص فقد كانت الورش أو الفرق تزود دائما» بوجوه جديدة .

و في صباح مكفهر كان حمد و رفاقه يتوغلون في الغابة العذراء نحو الطريق بل الممر المستحدث , وهم يحملون حبالا» ضخمة طويلة و عددا» من الأحزمة الجلدية و السيور المختلفة الأشكال و المقاييس و فأسا» واحدة أو فأسين.

أمرت الفرقة بالتوقف أمام شجرة عملاقة توسدت الأرض منذ عهد بعيد , على ما يبدو , فقد كانت عارية من أوراقها و قد نمت حول جذعها الأملس المديد و تشابكت شجيرات و أعشاب , و حبال من ألياف الأشجار و جذورها الهوائية إلى درجة كادت تخفيها لولا ضخامتها .

و بدأ العريف يوزع أوامره و تعليماته بهدوء و وضوح في حين كان السجناء يقفون على جانبي الشجرة بصمت و تأمل كأنهم يحرسون نعش عملاق أسطوري .

أمر حامل الفأس بتحرير الشجرة المقطوعة من كل ما يتشبث بها من نبات و عندما بدأت ضرباته تهوي متسارعة , كان أحد الجنود يدرب السجناء الباقين على ارتداء الأحزمة الجلدية استعدادا» لجر الشجرة العملاقة .

هذا السير يشد على الصدر , و هذا يربط بالكتفين , و هذا يشبك في تلك الحلقة الحديدية الواسعة .

و من ثم أعاد الشرح ثانية و هو يطلب من السجناء أن يقلدوا كل حركة من حركاته . . .

و قفزت إلى ذهن حمد صورة خيول العربة في معسكرات دمشق و هو يشدها بالسيور الجلدية و حلقات الحديد و النحاس , و ها هم الآن في طريقهم لأن يتحولوا إلى حيوانات جر .

يفرقع الصوت فوق رؤوسهم أو على أقفيتهم و يصرخ بهم السجّان مزمجرا» :

- هوس . . . يو . . .

تماما» كما كان حمد يحث بغليه و هو يلوح فوق رأسيهما بالسوط و يضرب به الهواء في فرقعة مثيرة أو يصرخ بهما و هو يشجعهما أو يؤنبهما .

- هوس . . . يو . . .

و تذكر أنه كان رحيما» مع بغليه , رفيقا» بهما و أنه لم يعمد يوما من الأيام إلى الانتقام أو القسوة رغم مشاكستهما العديدة و الحران في أحرج المواقف

فهل يجد هؤلاء المساجين من حراسهم تلك الشفقة و الرأفة التي كان يعامل بها حمد خيوله

لا يدري . . و لكنه لا يزال يذكر أن أحد الحراس في الشهور الماضية قد ضرب بحذائه قفا أحد رفاقه و أن أكثر السجانين إن لم يكن كلهم يلوحون بالسياط و إن كان استعمالهم لها جهرا» قليل الوقوع .

و سوف يعلم حمد بعد حين أن عملية الجر الآدمية هي عملية مستحدثة فقد كان المنفيون يقومون بقطع الأشجار الضخمة و تهذيبها و توضيبها منذ زمن بعيد , و كانت تستقدم أزواج من الثيران بل من الجاموس المعروف بالبقر الصيني تقرن أزواجا» بمثل هذه السيور و هذه الحبال و تبدأ عملية الجر يحثها السجناء بسياطهم و أصواتهم و سوف يعلم أن الاستغناء عن هذه الثيران عن علفها , و الاهتمام بها و نقلها من بلاد بعيدة و تربيتها قد تم منذ عهد قريب , منذ بضع سنوات , بعد أن تأكد المعمرون أن السجناء يستطيعون بأعدادهم الكبيرة بل المتزايدة أن يقوموا بهذا العمل و بعد أن أيقنوا أن المساجين يستطيعون أن يكونوا أكثر مرونة و أسلم تصرفا» أمام المصاعب و العراقيل التي تتعرض سير العمل و في المنعطفات الضيقة و المنحدرات , و من ثم فإن هذا النوع من العمل هو نوع من الأشغال الشاقة و في استخدام الرجال توفير واضح في الميزانية المخصصة لشراء الحيوانات المعدة للجر و شحنها و علفها و بناء المساكن المخصصة لها و الاستفادة من الأيدي العاملة التي كانت تخصص لحراستها , و الاعتناء بها و تنظيف زرائبها .

و عندما كان الرجال ينتهون من شد الحبال الثخينة إلى سيورهم الضخمة كان الحارس يمر عليهم واحدا» واحدا» و هو يتأكد من وضعية كل قطعة يتفحصها بعينيه و يشدها بيديه و يصلح من شأن ما يحتاج منها ،و هو يتمتم مشجعا» حينا» و مؤنبا» أحيانا» .

و بعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام , أمرهم بأن يخلعوا تلك الأحزمة و أن يكوموها أمامهم و من ثم عليهم أن يشدّوها إلى أكتافهم و صدورهم من جديد .

و تقدم نحو حامل الفأس يتأكد من تخلص الشجرة العملاقة من كل ما يعيق انزلاقها , و من ثم أصدر بعض الأوامر و التعليمات و راحت الفأس تضرب من جديد في أسفل الجذع نفسه تفتح على ما يبدو فرضة يثبت فيها الحبل الثخين الطويل الذي لا يزال مكوما إلى جانب الشجرة كأنه بعض أفاعي الغابة الرهيبة .

و مع الفجر الجديد كانت الفرقة تنطلق نحو الشجرة التي كانت جاهزة للجر منذ أصيل الأمس , تكوم الرجال حولها و راحوا يلفون الحبل الثخين حول قاعدتها و يثبتونه في الفرضات وهم يتصايحون :

- هات من عندك . . . خذ . . . لف عندك . . .

في مزيج من الفرنسية و العربية فقد كانت الفرقة , كل الفرقة من العرب ذوي العينين السوداوين الواسعتين .

ثم راحوا يثبتون الأحزمة الجلدية و السيور و الحبال التي أمضوا بعض نهار أمس و هم يتمرنون على استعمالها .

تقدم العريف يتثبت من وضعية تلك الحبال و الأحزمة و من ثم راح يقرن الرجال واحدا» وراء واحد في فرقتين تألفت الواحدة منهما من ستة رجال تماما» كما تربط الخيول في العربات العسكرية الثقيلة الحمولة .

- اسمعوا . . . هذه الشجرة ضخمة و لا يمكن جرها دفعة واحدة يجب أن تزحزح ثم تسحب شبرا» . . . شبرا» . . . مرة واحدة و شدة واحدة تشدون عندما أصرخ , هوس . . . يو . . .

انتبهوا . . . استعدوا . . .

تشبّث الرجال بالحبال المشدودة إلى سيورهم و إلى الجذع العملاق و هم يحسون أنهم على أبواب مرحلة من الأشغال الشاقة شديدة القساوة , يرغم فيها الإنسان على الانحدار إلى مرتبة حيوانات الجر . رفع العريف يده ملوحا» بها في الهواء و صرخ صرخة حادة طويلة :

- هوس . . . يو . . .

و تحرك الرجال تتثبت أحذيتهم الخشبية القاسية بالأرض و تشد سواعدهم و أيديهم شدا» عنيفا» على الحبال , و تنحني مناكبهم في حركات أمواج البحر المضطرب و تتقلص عضلاتهم , و يحقن الدم في وجوههم التي ازدادت سمرة و قسوة , و يتفجر العرق غزيرا» لزجا» كريها» , و تنطلق من الصدور و الشفاه همهمات كأنها خوار خافت بعيد .

توقف الرجال -- الثيران و تطلعوا إلى الوراء بعيون حاقدة و صدور لاهثة . . . كانت الشجرة العملاقة جاثمة و كأنها هي مسمرة في الأرض , و قد خيل لبعضهم أنها تزداد تشبثا» و التصاقا» بها .

تقدم العريف من جديد يفحص الشجرة المستلقية و يتأكد من أنها قد تحررت من كل ما يعيق بها و بحركتها , ثم عاد يأمر الفرقة بالانتباه و الاستعداد :

- هوس . . . يو . . .

و شد الرجال من جديد و هم يتصايحون و يحث بعضهم بعضا , و هم يتجنبون أن تهبط السياط على أقفيتهم و قد بدأت تفرقع في الهواء مهددة , و ارتفع صوت العريف مزمجرا» :

- شد . . . اسحب . . .

تقلقلت الشجرة الضخمة الجافة . و سمع لحركتها البطيئة ما يشبه صوت الانهيار المفاجئ الخفيف , و انزلقت قدما أو أكثر و راحت تتشبث من جديد بالأرض البكر .

- يكفي . . . إلى الغداء . . .

و عندما بدأ الرجال يخلعون أحزمتهم و يتخلصون من الحبال , كانت بعض الأفاعي تتسلل إلى جحور جديدة و كانت العقارب و عشرات الأجناس من الحشرات و الهوام تنطلق هاربة في شتى الاتجاهات .

و في اليوم الثاني كانوا يقطعون بعض الأغصان الأسطوانية لتسهيل انزلاق الجذع الجاف الضخم و هم يشدون , بإيعاز من العريف , بالحبال و السيور شدا» إيقاعيا» .

و في نهاية اليوم كانت الشجرة قد تركت وراءها ما يشبه اللحد بجدران من أعشاب و جذوع و ألياف , و قد تكدست حوله الجذور و الأغصان الحديثة القطع .

و في الأيام التالية كانت فرقة الجر تتقدم شبرا» شبرا» و هي تسحب خلفها العملاق الهامد الأملس لتسلمه إلى فرقة أخرى تمركزت في قلب الأدغال .

و هكذا راحت هذه الفرقة من السجناء تتابع عملها اليومي المضني تجر أحمالها الثقيلة لاهثة مجهدة و أشباح السياط و السجون المنفردة المرعبة تتراقص أمام أعينها المسهدة .

و قد يحدث أن تكون الشجرة المقطوعة أثمن خشبا» و أخف ضخامة و في هذه الحال كان على الفرقة أن تحملها على أكتافها , كي لا تخدش , في رتل أحادي أو مزدوج و من ثم كان عليها أن تتقدم في كل خطوة بإيعاز و أن تتوقف بإيعاز .

- هوس . . . يو . . .

و تقدمت الفرقة ذات يوم في أرض منحدرة كانت قد بللتها الأمطار الاستوائية السخية , و فجأة زلقت بعض الأقدام رغم الحذر الشديد و راحت الفرقة تترنح و هي تتحاشى أن تنسحق تحت حملها الثقيل .

و راح الرجال و الحرس يتصايحون و ساد الهرج و الرعب , و انطلقت الأوامر بالتوقف حادة حازمة إلا أن الترجرج لم يهدأ و الأقدام لم تستطع أن تثبت فوق تربة المنحدر الرخوة , و لاذ واحد ثم آخر بالفرار و انهارت عزائم بعضهم , و إذ بالجذع يهوي في ضجة رهيبة بين الأنين و الصراخ و صيحات الفزع الداوية .

أعطيت إشارة الاستغاثة : خمس طلقات متوالية أعقبتها خمس طلقات أخرى و إذ بالفرق القريبة تتراكض لاهثة بين الأدغال في اتجاه صوت الرصاص و قد اختلط السجناء بالحراس في شيء من الفوضى الصاخبة .

كانت الشجرة الضخمة الملساء مستلقية هامدة فوق عدد من الرؤوس و الأيدي و الأقدام المهشمة و قد غرزت مقدمتها في الأرض الرطبة .

و اختلطت صرخات الاستغاثة و الأنين المتواصل بأوامر الحراس الحادة و أصوات الرجال و هم يتنادون لرفع الجذع الرهيب المجرم .

الفصل التاسع

كانت غرفة حمد في المستشفى تطل من بعيد على السور المرتفع الضخم حيث تلتمع الأنياب الزجاجية الملونة الحادة الشرسة , و حيث تتحرك مئات من المخلوقات الناعسة و تختفي في ظلال الرعب و الجوع و الإرهاق و الحنين .

و خلف السور و الأبراج تمتد الغابة العذراء داكنة جامدة , تستلقي أشعة الشمس باسترخاء فوق سطحها اللامتناهي , و في الأفق البعيد العالي لا شيء سوى السماء زرقاء صافية لاهبة .

و تحرك الرأس الغارق في الضماد , في جهد واضح , و تطلعت عينان بأجفان قاتمة منتفخة تتفحصان باستغراب و ألم المهجع الجديد المغمور بأمواج النور الدافقة و الهواء الدافئ الطليق .

و بدا حمد يستعيد مأساة الأمس . الشجرة تترنح فوق الأعناق ثم تهوي فتسحق و تهشم .

و حرك ذراعيه تحت الغطاء الأبيض فتحركتا ببعض الصعوبة و حرك أنامله واحدة واحدة فأيقن أنها سليمة إلى حد ما , و تحسس أعلى ساقيه فإذا بكفه تصطدم بقطع من الخشب تشده شدا» وثيقا» و عندما حاول أن يدير قدمه خيل إليه أن ساقه قد تحولت إلى قطعة من حجر و أحس بألم صارخ في أضلاعه , فأغمض عينيه و هو يخنق أنات ترددت في صدره و راح رأسه يتلوى في حركة بطيئة و فوق أجفانه سحابة من تبرم و يأس .

و من جديد فتح عينيه و راح يجوب بنظراته المتعبة جنبات الغرفة المشرقة الواسعة .

كلن السقف في بياض الياسمين و قد تدلى منه مصباح و كانت الجدران نظيفة لماعة تكاد تشرق في وجه الأشعة الدافقة , و في زاوية منها علقت صورة لملاك بجناحيه الناصعين يبتهل بخشوع, و على شرفات النوافذ الواسعة المغمورة بالضياء اصطفت بعض المزهريات و قد تفتحت فيها براعم دائمة الابتسام .

كان حمد يظن نفسه حالما» يجوب عالما» آخر عندما أيقظته أنة عميقة أعقبتها حشرجة متقطعة في السرير المجاور .

كان الرجل جريحا» على ما يبدو فقد كانت العصائب تغطي رأسه و ذراعه الممتدة فوق الأغطية كأنها قطعة من خشب الحور , و لعله بعض رفاق مأساته .

لم يستطع أن يتبينه , فقد كان غارقا» في الضمادات كأنه في كفن حتى عيناه كانتا تختفيان تحت الأجفان الداكنة الحمراء المتورمة .

و خلف سرير جاره الجريح امتدت أسرة أخرى لم يستطع أن يتأكد من عددها و من وضعية مرضاها . أما جاره الآخر فكان يبدو أحسن حالا» و إن كان شحوبه و هزاله مخيفين .

و تنبه حمد إلى وقع خطوات ناعمة و حفيف ثوب فضفاض يتقدم من سريره و أدار رأسه بصعوبة صوب القادم الجديد , و راح يتأمل القبعة الواسعة كأنها شراع يرسو فوق الثوب الواسع بلون البحر الهادئ , و الوجه الصبيح الطلق ببسمته المتحفظة , و نظراته البريئة المشجعة , كم هو شبيه هذا الملاك بالملائكة في مستشفى السويداء بشعره الذهبي و عينيه الزرقاوين بلون السماء . . . لعله هو . ؟ قد يكون . . .

و عندما اقترب و انحنى فوق رأسه باسما» بدت العينان سوداوين واسعتين أما الشعر فلم يبد منه غير خصلات شديدة النعومة فاحمة لامعة كالابنوس .

- بونجور دياب .

حاول حمد أن يهز رأسه في حركة شكر و رد تحية و أدار لسانه ثقيلا» في فمه :

- بونجور . . .

و لم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة و قد تذكر فجأة أن للراهبة و للممرضة اسما» خاصا» بها غير مدموزيل و لم يحاول أن يجهد نفسه في التفتيش عنه فقد كانت الآلام الشديدة تعتصره رغم أناته المختنقة .

- أنت كويس . . . الحمد الله بالسلامة .

- شكرا» .

و فتح فمه يعض على ميزان الحرارة في حين كانت اليد الناعمة تشد على معصمه شدا» رفيقا» عميق الحنان .

و تقدم ضابط بأشرطته الذهبية الثلاث و قامته المديدة و الوجه الأشقر الحليق , و قد تركزت فوق عينيه نظارتان على غاية من الصفاء في إطار ناعم من ذهب .

تحدث الضابط و الممرضة حديثا» غير قصير لم يفهم منه حمد شيئا» كثير فقد كانت لهجة الضابط كزقزقة العصافير المرحة إلا أنه استطاع أن يفهم منها أنه هو محور الحديث و أن جراحه قابلة للشفاء .

و عندما انتقلت الراهبة إلى السرير المجاور كان حمد يحس بشيء من العزاء و الراحة .

كان الجرس الرهيب يقرع من بعيد قرعه المتواصل المعتاد مع ضوء الفجر , عندما أحس حمد بوقع خطوات ثقيلة تقترب من سريره , و من ثم تقدم جنديان يحملان محفة مفتوحة , خلف ممرض لا يزال يتثاءب و هو يفرك عينيه و يتحسس أزرار مئزره الأبيض . و انحنى الرجال فوق السرير المجاور يلفون الجثة الهامدة بالغطاء الأبيض و يلقونها بشيء من الإعتناء و كثير من البرودة فوق المحفة و من ثم ينطلقون بها في صمت .

أشاح حمد بوجهه و هو يحس بأن مأساة قد انتهت لتبدأ مأساة أخرى إلى جواره . . . ما أقسى الموت في ديار الغربة , لا دمعة تذرف و لا تحية وداع و الأهل في الوطن البعيد . . . قد تكون الأم لا تزال تنتظر و هي تغزل الصوف

و تغني في أعماقها أغاني الشوق و الحنين مثل أم حمود , عندما يكون التراب في بقعة ثانية مجهولة من بقاع العالم ينهال على الجثة المشوهة الهامدة .

و قد تكون الزوجة تحلم باللقاء في نافذة بيتها المغمورة بضوء القمر , و قد يكون الأطفال الذين كبروا يملؤون البيت مرحا» و صخبا» و هم يرحبون بعودة والدهم المرتقبة , عندما تكون الحفرة المرتجلة قد اختفت في ظلال الأعشاب الإستوائية السريعة النماء .

و من يكون هذا التاعس ؟ قد يكون صديقا» جديدا» أو رفيق عبودية , و قد يكون من بلاده هو و من أي بلد من بلدان العالم المستعبد . . . إنه لا يدري . . . يتمنى أن لا يكون هو (سي عياش) الذي كان دائم الحنين إلى طفليه الصغيرين في قرية من قرى الريف المراكشي و الذي كان يتمتم دائما» في أوقات الاستراحة النادرة :

يا ولدي يا فطيمة حرام تعيشي يتيمة

بكره أبوك يعود يا بنية ! . .

لم يستطع (سي عياش) أن يقص على حمد تفاصيل قصته , فالمراقبة و الريبة و أوقات الراحة القليلة القصيرة لم تكن تشجع على الاسترسال في الأحاديث , إلا أنها كانت شبيهة بقصة حمد في أعماقها : تهمة بمحاولة نسف خط إمدادات الجيش الفرنسي لصالح الثوار في مراكش , فمحاكمة صورية فنفي و أشغال شاقة .

كان سي عياش رغم تظاهره بالطاعة و الاستسلام على غاية من الشجاعة و الحساسية , دّينا» لا يفتر عن ذكر الله و إن كانت الفرص المتاحة للصلاة متباعدة و مع أن قبلته كانت في الغالب قبلة تقديرية إلا أن ذلك لم يكن يخفف شيئا» من وجده و حماسته الدينية .

حاول سي عياش كثيرا» أن تسمح له إدارة المعتقل بإقامة صلاة الجماعة في فترة استراحة يوم الجمعة .

إلا أن محاولاته و محاولات أمثاله ذهبت كلها عبثا» . . . إنهم أشقياء

لا تصلحهم العبادة و التضرع بقدر ما يصلحهم العمل الشاق الدائم في الغابات العذراء ! ..

و تذكر حمد الهدية الفريدة التي وزعها سي عياش على رفاق المهجع في أعقاب صيامه المضني في جو يزيده العمل المرهق المتواصل اختناقا» و ضيقا» , فقد وصلت إليه من أهله علبة بحجم الكف من الزيتون الأخضر , أبى أن يحتفظ بها لنفسه , بل راح يفرقها حبة حبة على رفاقه :

زيتون في معتقلات الغويان ! . . . شيء لا يصدق ! . . .

و تذكر حمد أن رفاقه راحوا يمضغون الحبة مضغا» طويلا» يتلذذون بها كأنهم في جلسة من جلسات القات في اليمن , أما هو فقد دس الحبة في يده ليشمها مرة بعد مرة قبل أن يغفو . . .

أما جاره الجديد ذو الوجه الشاحب الحزين سي مسعود فقد كان يتكئ غالبا» على حافة سريره يسند رأسه بيد مرتجفة و يسبح في شبه غيبوبة تنتهي بارتعاش متقطع مفاجئ يهتز له حتى السرير و ترتجف الأغطية ارتجافا» مفزعا» , و ينطلق من الفم المزبد هذيان غريب , مزيج من لهجات فرنسية و عربية و كلمات مبتورة أو مشوهة لا أحد يدري لها معنى أو أصلا .

إنها البرداء ! . . . الملاريا ! . . .

لم يسلم منها أحد حتى الحراس الذين كانت تشاهد ناموسياتهم من الكوى الصغيرة المغطاة بشريط المنخل .

حاول حمد غير مرة أن يحادثه إلا أن الرجل لم يكن يحسن التعبير باللغة العربية , حتى اللهجة المغربية الجزائرية التي كان حمد قد تعودها كانت أيضا» صعبة على سي مسعود , و كان يود لو استطاع أن يبادل جاره الحديث بالفرنسية .

و استطاع حمد أن يفهم منه خلال الفترة الطويلة التي قضاها إلى جانبه بعض الخطوط العريضة لمأساته .

إنه جزائري , و أكثرية المغضوب عليهم في الغويان الفرنسية جزائريون .

إنهم في نظر القيادات العسكرية الفرنسية إجمالا» غير إنضباطيين , رؤوسهم كبيرة , و طباعهم شرسة , و الجزائر بالنسبة لفرنسا جزء من أرضها , و شعبها جزء من الشعب الفرنسي , و خدمة الشعب الفرنسي إلزامية على الشاب الجزائري و هو يساق إلى الخدمة سوقا» و إن لم يكن متحمسا» و لا مؤمنا» بتلك الخدمة . و قد اكتشفت استخباراتهم أن بين العسكريين منظمات سرية تدعو إلى استقلال الجزائر عن فرنسا و إبراز الشخصية الجزائرية , و كانت هذه التهمة كافية لأن تحمل إلى المنافي تلك الأعداد الضخمة من الشباب , ومع الزمن بدأ حمد يحس بالروابط العميقة التي تربط هؤلاء المنفيين المعذبين .

شعوب مغلوبة محكومة بقوة السلاح تريد وتحاول أن تكون حرة فتلقى في سبيل ذلك ما تلقاه من دمار و تشريد و دماء و دموع و اضطهاد .

و مع الزمن بدأ يحس بأن خصم هؤلاء المنفيين جميعا» واحدا» , و إن مصدر مصائبهم و نكباتهم واحد .

و سمح لحمد بأن يستعمل العكاز فكان يقضي أكثر أوقاته متنقلا» بين المرضى يؤاسيهم و يستمع إلى أحاديثهم وتمنياتهم , و كان يحس بشيء من العزاء و السلوى و هو يتبادل الأحاديث و الذكريات مع الصطايفي زميله في مأساة الشجرة المجرمة و الذي يعتقد أنه الوحيد الذي لا يزال حيا» مع حمد من الرفاق الثمانية الآخرين .

و لاحظ حمد بكثير من المرارة أن ذراع الصطايفي اليمنى قد بترت و أنه كان حزينا لا يبتسم و لا يسلو .

و عندما كان حمد يحس بالملل من النظر إلى أنياب المعتقل الزجاجية و الأبراج المتباعدة المرتفعة , كان ينتقل إلى النافذة المقابلة المطلة على الطريق الموصل إلى الميناء البعيد المختفي خلف الهضاب المكفنة بالخضرة الداكنة .

كان الطريق بل الممر مقفرا» في الغالب , إلا أنه كان يغص أحيانا» بقوافل السجناء بقبعات القش الواسعة و الثياب الغريبة المخططة كأنها جلود الحمر الوحشية يسوقهم حراسهم نحو الميناء لنقل الأرزاق على ظهورهم أو في عربات صغيرة يدفعونها أو يجرونها بأنفسهم .

و يبدو أنهم كانوا على شيء من المرح فقد سمح لهم أن يغنوا و يتضاحكوا و هم في طريقهم نحو الميناء .

فالمحظوظون من السجناء هم الذين كانوا يدعون إلى رحلة السخرة التي كانت شاقة ككل الأعمال الشاقة في الغابة العذراء إلا أن هناك تعزية كبرى في التطلع إلى البحر الواسع الواسع الذي كانت تختفي وراءه بعيدا» بعيدا» رائحة من الوطن الحبيب , و إلى المركب الذي ربما عرج في رحلته الطويلة على ديار الأحبة و الأهل , و إلى الناس الذين يتطلعون من بعيد إلى هؤلاء العفاريت الملونين و هم منهمكون في العمل.

و ذات يوم كان حمد يتكئ بيد على حافة النافذة و بالثانية يشد على عكازه و هو يتطلع عبر الممر الطويل صوب أفق الميناء , عندما ملأ أرجاء الغابة القريبة خوار فظيع من البقر و جلبة عالية و صراخ و نداءات مختلفة اللغات و الأصوات و الأبعاد .

كان القطيع - على ما يبدو - قد قرن بعضه إلى بعض بحبال طويلة , وكان يسير في خوف و حذر شديدين لا يتحرك إلا بالحث و العصي الطويلة التي كانت تنهال على قرونه و ظهوره , فالغابة الظليلة المتشابكة , و الممر الضيق , و هؤلاء الرعاة الجدد بألوانهم المثيرة , و الجو اللاهب , كل ذلك كان يوحي لهذا القطيع الغريب بالاضطراب و الفزع ,إلا أنه عندما بدأ يدخل الباحات العالية و الأسوار راح يشعر بالطمأنينة فأخذ ينبش الأرض بأظلافه الضخمة مثيرا» زوابع صغيرة من التراب ما عتمت أن تكاثفت , فتراكض عمال المستشفى يغلقون النوافذ بسرعة و هم يتصايحون , فتختفي أصواتهم في هزيم من خوار القطيع .

و استلقى حمد فوق فراشه وهو يستعيد هذا المشهد الغريب و يتساءل : ترى هل عدلت إدارة المعتقل عن استخدام السجناء في أعمال الجر , و عادت إلى طريقتها السابقة في استخدام البقر الصيني ؟ . . .

- حبذا . . . ولكن الذي رآه حمد و الذي ظل يتأمله بانتباه شديد قبل أن تزيحه إحدى الممرضات بلطف عن النافذة , لم يكن صالحا» في أكثريته لأعمال الجر , فقد كانت الأبقار إما عجولا» صغيرة أو حيوانات مسنة عجفاء . و في اليوم الثاني كانت تقدم للمرضى شرائح من اللحم الطازج .

و في المساء كانت تنصب في زاوية من زوايا الغرفة الواسعة شجرة صنوبر صغيرة راحت الراهبة ذات القبعة الشراعية البيضاء تقضي ساعة أو أكثر وهي تعلق فيها الشموع و النجوم الملونة و المصابيح الصينية و تبني بيدها شبه مغارة نثرت فوقها شذرات من القطن الناصع و راحت ترتب أمامها و في داخلها تماثيل صغيرة لبقرة و حمار حول سرير لطفل صغير يصلي فوق رأسه بخشوع شيخ بلحية صغيرة و امرأة بثياب قرمزية ضافية ومنديل أبيض ينسدل حتى القدمين .

كان بعض المرضى لا يعون شيئا» من كل ما يحدث .

أما الآخرون فقد كانت أبصارهم معلقة بيدي الراهبة و هي تنقلها برشاقة من غصن إلى غصن و من تمثال إلى آخر .

و بعد أن ألقت نظرة رضى على شجرتها اللطيفة , التفتت و الابتسامة الوقورة ترتسم على شفتيها الورديتين نحو القاعة الواجمة إلا من أنة موجع ثم أحنت رأسها إحناءة خاشعة و راحت تتكلم بصوت بدا ناعما» رقراقا» كالجدول الجبلي الصغير , ثم راح يعلو و يعلو في مزيج من الخشوع و الابتهال :

- اليوم يولد السيد الغادي , عزاء الفقراء من مغارة متواضعة لبيت لحم , ملوك المجوس يتبعون النجم الفضي حاملين الهدايا إلى الطفل الإله . . . ليكن الرب نورا» للتائهين و بلسما» لجراح المعذبين , و ليكن لكم أنتم في هذا اليوم بشائر من محبة و رجاء , و ليكن لكم في احتمال متاعب الأرض مكافأة من نعمة السماء ! . . .

لم يستطع حمد أن يفهم شيئا» كثيرا» من هذا الخطاب القصير و لكنه أحس بأنه صلاة و ابتهال , لم يلبث أن أعقبه دخول أحد الحراس و هو يحمل عددا» من الهدايا الصغيرة راح يوزعها على الأسرة بشيء من السرعة و عدم الاهتمام .

علبة سكاير ميليا قطع صغيرة من الحلوى , صورة صغيرة ملونة . . .

و تقدمت الراهبة الوديعة توزع مع بسماتها كلمات التشجيع و المواساة , و عندما كانت تغادر الغرفة تودع بالتفاتة باسمة كان حمد يتوكأ على عكازه و يقترب من صاحبه الصطايفي الذي كان منهمكا» في فتح علبة الميليا .

كان الصطايفي يسند العلبة إلى ذراعه المبتورة و يثبتها بذقنه و يتحسسها بأنامله و قد بدا شديد الاهتمام بها شديد الحرص عليها , فهي منحة قد لا تجود بها أو بمثلها الأعياد البعيدة المقبلة .

كان قد تناول سيجارة فأشعلها له حمد و هو يسأل عن معنى خطاب الراهبة .

كان الصطايفي يتقن الفرنسية , وقد عاش فترة عاملا» في مناجم الشمال بفرنسا فلم يجد صعوبة في أن يشرح لحمد شيئا» عن الميلاد و عن أعياد الميلاد و أن يوضح بعض المعاني التي قصدت إليها الراهبة في صلاتها الخاشعة ثم تمتم و هو يتلفت غاضبا» في حذر و خوف :

- خطاب جميل , و صلاة صادقة إنها تستحق التقدير و لكن . . . و لكن . . . آه لو استطاعت أن تقول لأبناء جنسها بعض ما قاله السيد المسيح للعشارين و الفريسيين . . .

الفصل العاشر

ما كاد حمد يتماثل للشفاء حتى أعيد من جديد إلى السجن ليفسح مجالا» في المستشفى لمريض جديد بالملاريا أو محطم تحت جذع , أو ملدوغ , أو محتضر في أعقاب بعض الأمراض الإستوائية الكثيرة الغريبة .

كان السجن الجديد شبيها» بالسجن القديم , جدران سميكة و كوى ضيقة و سقف من حديد تعلوه صفائح من زنك حتى خيل إليه أنه هو نفسه لولا أن بابه كان يواجه مشرق الشمس و لولا أن الأسرة هنا تختلف عنها في المهجع السابق و لولا أن الوجوه الجديدة هي خليط من وجوه سبق له أن تعرف إليها و أخرى لم يتأكد من معرفتها أو الالتقاء بها .

خطا حمد خطواته العرجاء من باب المهجع الطويل بين صفين من الأغطية البيضاء المعلقة على ارتفاع قليل وقد شدت إلى الجدران بحلقات من

حديـد و حبـال قصـيرة تكومـت تحتهـا صناديـق قديمـة و حديثـة صغـيرة مغلقـة و أحذيـة مـن خشـب , وقـد اسـتلقى فـوق تلـك الأغطيـة عـدد مـن الرجـال الذيـن راح بعضهـم يتطلـع إلى القـادم الجديـد , في حـين لم يعـره الباقـون أدنى اهتـمام و قـد كانـوا منهمكـين في لعبـة اللوتـو التـي سـبق لحمـد أن شـاهدها في سـجون فرنسـا .

- أهلا حمد ... أهلا ...

و قفـز مـن بـين الرجـال المتربعـين عـلى الأرض الخشـبية , شـاب طويـل عريـض المنكبـين , واسـع العينـين , و قبـل أن يسـمح لحمـد بـأن يلمـح وجهـه الـذي طفـح بالـسرور العـارم المفاجـئ الممـزوج بـشيء مـن الأسى العميـق , كان يطوقـه مـن عنقـه بسـاعديه السـمراوين المفتولتـين , و يغمـر خديـه و شـاربيه بالقبـلات و الدمـوع ...

- يونس ...

و حملـه يونـس بـين ذراعيـه و ألقـاه برفـق فـوق أحـد الأغطيـة البيضـاء و راح كل منهـما يمسـح بإحـدى يديـه دموعـه المتسـاقطة في صمـت , و قـد شـبك اليـد الثانيـة بيـد الرفيـق الصديـق القديـم .

كان حمـد يتـوق إلى أن يلتقـي بإبـن بلدتـه يونـس أنيـس جربـوع الـذي كان يعـرف أنـه هنـا في سـجون الغويـان الواسـعة المتعـددة , و يتـوق إلى التعـرف بحسـين العاقـل مـن قريـة المجـدل المجـاورة و مزيـد عـز الديـن مـن قريـة السـجن المطلـة عـلى المزرعـة و السـويداء و الذيـن سـبقاه إلى هـذه المنـافي الرهيبـة.

هـا هـو وجهـا لوجـه أمـام يونـس الـذي انحنـى فـوق صـدره باسـما» وهـو ينشـج , ثـم اسـتلقى بـدوره عـلى سريـر الخـام المجـاور و لم يقطـع حديثهـما الخافـت الطويـل غـير طنـين الجـرس العنيـف المتواصـل مـع خيـوط الفجـر الأولى .

أعفـي حمـد مؤقتـا» مـن الأشـغال الشـاقة في الأحـراش و كلـف بمهمـة فتـح الأبـواب في مهاجـع السـجون .

أصبـح لقبـه الجديـد المؤقـت (بـورت كلاي) أي حامـل المفاتيـح , و صـار عليـه أن يسـتيقظ مـع الجـرس أو قبـل الجـرس يفتـح المهجـع و يخـرج المسـاجين

تحت إشراف الحرس و يتأكد من أن الأسرة و الصناديق و الخزائن مرتبة و يحمل الماء إلى المهاجع يملأ البراميل الصغيرة ثم يغلق الأبواب و يتمدد في سريره إذا لم يكلف بمهام أخرى في انتظار المساء .

عرّفته مهمته الجديدة بعدد آخر من المعتقلين من بلاد الشرق و من افريقيا , أنه لم يعد يذكر منهم إلا أسماء قليلة , و إن كان يذكرهم جميعا» بكثير من التفاصيل و كثير من الحنان و المودة و الإشفاق , و هو لا يزال يذكر نهاية بعضهم بغصة و ألم :

- شكيب محمد عبد الصمد من عماطور لبنان متهم بقتل ضابط فرنسي في باحة سراي البرج . . . نودي عليه من المهجع مع قرع الجرس العنيف في الفجر الباكر و شاهدوه رفاقه يسوقه الحارس إلى خارج المعتقل , و لم يعد حتى اليوم .

أين هو ؟ ما هو مصيره ؟ لا أحد يعلم سوى الحارس الذي ساقه و ربما علمت إدارة المعتقلات التي سجلت إلى جانب اسمه و رقمه دون أي تفصيل كلمة : مفقود .

لم يكن تعبير : مفقود , غريبا» عن سجلات منافي الغويان , فقد لا يندر أن يفر بعض السجناء أملا» في الحصول على الحرية بأي ثمن , ثم يعود بعضهم و قد أرهقه الجوع و المرض و اليأس , و يختفي البعض الآخر في أحضان الموت أو أحضان الغابات إلى حين و قد لا يندر أيضا» أن يسوق الحارس المعربد الحاقد المنتقم لسبب أو لآخر خصمه السجين و يفرغ في رأسه رصاصة غادرة ثم يدعي أنه أقدم على ذلك دفاعا» عن النفس يشجعه على هذا الإدارة المتساهلة التي كانت تعمد بدورها إلى مثل تلك الإجراءات الغادرة .

و ها هو يدعى إلى المستشفى و هو يرتجف من البرداء ليقف أمام جثة مكفنة بغطاء أبيض كان الطبيب , بنظاراته الذهبية الشديدة الصفاء , ينقل نظره بين الجثة و بين السجين المتكئ على عكازه و هو يرتقص من الألم :

- يونس أخوك . . .

- نعم . . .

قالها و هو يحس بجفاف مفاجئ حاد في حنجرته و يشعر بأن فاجعة مؤلمة تهدم ما أبقت البرداء من عزمه , إلا أنه عاد فتمالك نفسه و هو بين مصدق لظنه و مكذب .

- هل له أعداء , و من تظنهم ؟

لا ... يونس ابن حلال ... يحب رفاقه و رفاقه يحبونه .

و لم يستطع أن يتابع الكلام فقد توقفت الألفاظ على حافة شفتيه المرتجفتين الجافتين و انسابت الدموع تتغلغل في شاربيه الفاحمين و تنحدر حتى العنق .

و عندما رفع الطبيب الغطاء عن الوجه المسجى , ظهرت آثار جرح حديث يحرق البارود حافتيه , يخترق سطح الجبين , و يقطع أرنبة الأنف ليفتح ثغرة واسعة تغمرها الدماء في أسفل العنق .

- يونس : آخ يا خيي ...

و لم يعد حمد يعي شيئا» سوى أنه عرف فيما بعد أنه ظل يهذي عدة أيام في المستشفى , و يردد أناشيد حزينة عالية النبرات حينا» خافتة أحيانا» و قد وقف حوله بعض العمال و الحراس و هم يراقبونه بين المشفق و هازئ .

أما عن مزيد فقد ترامى إليه أنه نقل إلى العمل في مناجم الذهب في معتقل بعيد ناء .

قيل أنه هرب إلى أمريكا و قيل أنه فقد , و عندما جاءت زوجته بعد عشرين عاما» تسأل حمد عن مصير زوجها كان ولداها الشابان ينصتان باهتمام إلى بعض الشائعات التي راجت في المعتقل عن اختفاء مزيد .

و إلى اليوم لا تزال الزوجة الحزينة العجوز و الأحفاد و الوالدان ينتظرون بأمل دائم التجدد عودة السجين المفقود ...

ألم يقطع الناس الأمل من عودة حمد ؟ و هل صدق إلا أقلهم أنه قد عاد حيا» يرزق ؟ ..

و أما رفاقه من المغاربة فلم يكن مصيرهم يختلف كثيرا» عن مصير شكيب و يونس و مزيد فطالما شهدت شواطئ شمال افريقيا قوافل السجناء الشباب مشدودي الأيدي , حليقين تسوقهم الحراب نحو السجون الحربية المتجولة , ومن ثم نحو المجهول , و لكن ندر أن شاهدتهم يعودون و إن عاد الأقل فعاجز مشوه أو مهدم عليل . . .

و استطاع حمد مع الزمن و بشيء من المكابرة أن ينتصر على المرض و إن يعيد إلى ساقه حركاتها شبه الطبيعية .

لم يستسلم إلى اليأس و لم يركع أمام تحدي الطبيعة و تحدي المعمرين , و قد كان يحس في ساعات الضيق و الاختناق بضوء من رجاء يشع في نفسه و يبعث فيها الاطمئنان و الثقة بالله و بالقدر خيره و شره .

لم يكن حمد يعرف شيئا» عن الكتب و التعاليم الدينية على اختلافها , لم يدخل كنيسة و لا جامعا , و لا مدرسة , و لم يسمع خطبة , و لم يعلق في ذهنه عن المعتقدات إلا ما يتردد على ألسنة الناس من أحاديث عابرة .

و مع أن الناس في بلده يجتمعون للصلاة , و مع أن والده كان يذهب في الليالي للاجتماع برفاقه من الأجاويد الشيوخ يرددون الأدعية و الأناشيد الدينية إلا أنه لم يحاول أبدا» أن يهتم بذلك .

كان يكفيه أن يؤمن بإله واحد يأمر بالخير و ينهي عن الشر . أما الآن فقد أضاف إلى

إيمانه البسيط السابق إيمانا» جديدا» , إيمانا» بأنه يجب أن لا يستسلم إلى اليأس , يجب أن يحيا صابرا» و أن يعود إلى وطنه و إلى أمه .

بهذه الروح قابل حمد الإغراءات الجديدة التي بدأت تغزو مهاجع الأشقياء المحرومين فقد أخذ بعض السجناء يتلقون رسائل شخصية من فرنسا , و عندما كانوا يفتحونها كانت أنظارهم تسمر على ابتسامة فتاة بشعر قصير أو مسترسل , و بوجه يختلف في صفائه و رونقه إلا أن النظرات كانت غالبا» واحدة: نظرة تتحدى في نعومة و إغراء .

عـروض زواج مـن فتيـات بأعـمار و أطـوال و ألـوان و ثقافـات مختلفـة و أوضـاع اجتماعيـة متقاربـة إلا أن النغـم الموحـد فيهـا كان الوعـد بالسـعي لتخفيـف مـدد الأحـكام حتـى العفـو .

كانـت الرسـالة الأولى الشـخصية التـي تلقاهـا حمـد قـادرة عـلى تشـويش ذهنـه و اضطرابـه فكانـت التجربـة بالنسـبة إليـه جديـدة شـديدة الإغـراء . إلا أنـه اسـتطاع مـع الزمـن أن يسـلو .

و في التجربـة الثانيـة كان قـد اكتسـب مناعـة و مـن ثـم لم تعـد الرسـائل المقبلـة تثـير في نفسـه إلا شـيئا» مـن الاشـمئزاز .

و لم تطـل مهمـة حامـل المفاتيـح بعـد أن أصبـح قـادرا» عـلى العمـل , و مـن ثـم بعـد أن لاحظـت إدارة المعتقـل تصميمـه عـلى أن لا ينحنـي أمـام الإغـراءات .

أعيد إلى العمل الترتيب المضني المرهق في الغابات العذراء .

انطـلاق مـع الفجـر, و عـودة عنـد الظهـيرة , ثـم اسـتئناف لأعـمال الصبـاح ثـم العـودة إلى المهاجـع الجديـدة حيـث الأسرة مـن قـماش ترتفـع عـن أرض الغرفـة الخشـبية , و يلـز بعضهـا بعضـا « حتـى تـكاد تبـدو سريـرا» واحدا»واسـعا» .

و هكـذا مضـت السـنوات مملـة كالحـة لا يغـير مـن طعمهـا المريـر غـير بهجـة مصطنعـة عابـرة في عيـد الميـلاد أو رأس السـنة , كانـت في الغالـب إثـارة جديـدة و تحريضـا» لذكريـات كامنـة عـن أعيـاد الوطـن الصاخبـة الشـديدة المـرح و عـن الأهـل و الأحبـة الذيـن قـد يذكرونـه و قلوبهـم تعتـصر حزنـا» في موجـة أفـراح الحـي العارمـة , حتـى نهـار الأحـد نهـار الراحـة و الاسـتجمام كان نوعـا» مـن أنـواع الأشـغال الشـاقة المخففـة : غسـيل و حراسـة غسـيل .

و الحـوادث المفجعـة التـي كانـت تهـز السـجناء الجـدد لم تعـد تهزهـم الآن , فقـد تعودوهـا حتـى هانـت و لم تعـد ترهبهـم التهديـدات بالزنزانـات المنفـردة , وأغـلال الحديـد .

حتـى الذيـن جربـوا بشـاعتها لم يلبثـوا أن بـددوا رهبتهـم و عذابهـم في غمـرة الأعـمال الشـاقة الجديـدة اليوميـة .

و حتى الذين أرسلوا إلى (جزيرة الشيطان) بعد محاكمات عسكرية خاطفة و الذين قيّض لهم أن يعودوا أحياء و ليهمسوا إلى الموثوقين من الأصدقاء بأساليب التعذيب الرهيبة التي تعرضوا لها هناك حتى هؤلاء لم يمنعهم ذلك من المثول مرات أخرى أمام المحاكم العسكرية نفسها : أليست الغويان كلها جزيرة الشيطان ؟ . . .

و ذات يوم عندما كان حمد يحلق بنفسه و بيده كسرة من مرآة أفزعه دبيب الشيب المبكر في عارضيه . و تجاعيد الهم ترتسم عميقة في جبينه الذي حولته الشمس الاستوائية إلى قطعة من نحاس داكن , إلا أنه سرعان ما سلا عندما تذكر أن تسعة أعوام من الأشغال الشاقة و المنافي و الحرمان قد مرت , و عندما أبلغ أنه سيكلف بمهمة حامل المفاتيح نظرا» لحسن سلوكه في السجن و لهمته و انضباطه في العمل .

عاش حمد ثلاث سنوات هادئة لولا ضغط الذكريات و مرارة الاغتراب و المآسي التي كانت تؤرقه و تدمي قلبه .

لقد كان عمله الجديد نعمة يحسده كثيرون عليها إلا إنها كانت في حد ذاتها بالنسبة إليه مضنية مزعجة , فقد عز عليه أن يصبح سجانا» لرفاقه يفتح لهم الأبواب و يغلقها إلا أنه لا يزال إلى اليوم يبرر قبوله هذه المهمة طوال ثلاث سنوات بسوء حالته الصحية فهو يكاد لا يفارق المستشفى و الأدوية , حتى أنه أخطر إلى دخول المستشفى في العاصمة (كايان) لإجراء عمليتين في كليتيه لا يزال إلى الآن يشكو منها و يضطر بسببها إلى التزام فراشه فترة بعد فترة .

و لا يزال حمد يذكر أن مهمة حامل المفاتيح و إن كانت في ظاهرها مريحة إلا أنها كانت تسمح للملل القاتل و الخمول و الكآبة أن تنمو و قد تتأصل يوما» بعد يوم .

حتى أنه وجد نفسه مدفوعا» إلى أن يقدم طلبا» إلى المعتقل يرجو فيها أن يسمح له بالانتقال إلى العمل في إحدى الورشات الثابتة المنتشرة في داخل الغابات الهائلة الاتساع . . . و في الغابة أحس حمد بأنه يبدد شيئا» من سأمه و كآبته .

صحيح أن العمل مرهق : تقطيع جذوع , و جر أخشاب و توضيبها و تجميعها في مراكز (سنترالات) , حيث تنقل إلى ميناء غير أن الحياة هنا تختلف في نواحي متعددة عن الحياة في المعتقل، فالأسوار هنا هي شواطئ البحار أو مجاهل الصحارى الاستوائية و المعتقل هو الغابة الشاسعة ذاتها و الحراس حراس هنا و هناك إلا أنهم في الغابة أشبه بمفتشين بينهم القاسي الجاف و بينهم من هم أخف قسوة و غلظة .

كانت الورشة التي التحق بها حمد تتألف من عشرة أشخاص يعيشون حيث يعملون و لا يلتقون بغيرهم من العمال السجناء إلا في المركز (السنترال) , كل أحد أو في الأعياد القليلة النادرة .

كان كل واحد من الرجال العشرة في الفرقة قد بنى لنفسه كوخا» من الخشب يرتفع مترين إلى ثلاثة عن الأرض , سقفه من سعف النخيل الاستوائي و أرضه من الخشب و ركائزه أشجار الغابة الحية الضخمة ذاتها , يصل إليه بسلم متحرك يرفعه و يخفضه حسب الحاجة , و في الداخل مؤونة الأسبوع و بعض أدوات المطبخ و برميل صغير للماء , و في بعضها كان يعلق قوس و جعبة للسهام من بقايا قماش خيمة .

كانت الأكواخ متقاربة و متشابهة و إن اختفى بعضها خلف الجذوع الضخمة و الأغصان الخضراء الداكنة الدائمة النمو و بين الألياف المتأرجحة . . .

تعاونت الفرقة لبناء مأوى لزميلهم الجديد و في المساء كان حمد يستلقي فوق أرض كوخه الخشبي المعلق في الهواء و يستسلم إلى التأملات و الذكريات وحيدا» في أعماق الغابة التي كانت تبدو حالكة السواد كأنها قطعة من الليل الدامس و إن التمعت من خلال الكوة الصغيرة بعض النجوم الشديدة البريق .

لم يحاول أن يغري جفنيه بالنوم , لقد كان في حالة يلذ لإنسان فيها أن يتأمل : أنه في كوخه وحيد حر في الدخول و الخروج , يستطيع أن يغني بملء رئتيه أغانيه الحزينة , أغاني الشكوى و الحنين , يستطيع أن يأكل متى شاء , و يستيقظ متى شاء و يستريح متى شاء , أنه يحس بشيء من الحرية و إن كان قد أفهم أن عليه أن يقدم كل أسبوع كمية معينة من الأخشاب يقطعها و يحملها إلى عربة من حديد و يدفعها أمامه مع واحد من زملائه فوق خط حديدي ضيق حتى المركز .

و هـو يشـعر بـشيء مـن الراحـة و إن كان قـد أفهـم أن عقوبـات التقصـير و الإهـمال أشـد قسـوة , إلا يكفـي أنـه اسـتراح مـن قـرع الجـرس الـذي لم يهـدأ طـوال اثنـي عـشر عامـا» ؟ إلا يكفـي أنـه ودع ذلـك السريـر مـن القـماش الضيـق الـذي كان يكبلـه كل ليلـة فـلا يسـتطيع أن يتقلـب و لا أن يتحـرك بـشيء مـن الحريـة دون أن يدفـع بيـده أو سـاقه سريـر جـاره ! . . .

إلا يكفـي أنـه اسـتراح مـن البعـوض و الخفـاش و روائـح المهجـع النتنـة ! . . كان يشـعر بـأن الإنسـان يسـتطيع أن يكـون في هـذه الغابـة راضيـا» , مستسـلما» , إلا أن الإحسـاس بالظلـم و الاسـتعباد و حجـز الحريـة , و الحرمـان مـن المجتمـع الإنسـاني , و الحنـين الدائـم المتجـدد إلى الأهـل و الوطـن و طيـف الأم السـاهرة المنتظـرة بصـبر القديسـين عـودة الابـن المـشرد المعـذب , كل ذلـك كان ينغـص عـلى حمـد كل محاولـة للاستسـلام و الرضـا .

و عـادت إلى ذهـن حمـد الصـور الرهيبـة الجريئـة التـي كان يرسـمها لثـورة يؤججهـا هـؤلاء المعذبـون ضـد جلاديهـم في تلـك المجاهـل النائيـة . إلا أن حماسـته لتلـك الفكـرة الهائلـة لم تلبـث أن خمـدت فالإرهـاب , و تجزئـة المعتقـلات و الريبـة كانـت هـي المهيمنـة ومـن ثـم فـإن مثـل ذلـك التمـرد في مجاهـل نائيـة سـيكون نكبـة لا تسـتحق التضحيـة الخـاسرة .

و عندمـا كانـت طلائـع الفجـر تطـل مـن كـوة كوخـه كان صوتـه الحزيـن الناعـم يـردد في سـكون الغابـة السـوداء (مـوالا») لا يـزال يـردده إلى اليـوم و كأنـه يحيـي تلـك الفـترة الرهيبـة مـن شـبابه :

دهري غدرني و أصبحت أنا وحيد

يا حيف يا عمر المضي في السجن

و أصبحت أنا وحيد

أسألك يا إله العرش الواحد الوحيد

نرجع إلى الديار و يكون عنا أكبر عيد . . . أوف . . .

الفصل الحادي عشر

كانت الأعلام ترفرف فوق مركز التجمع , عندما بدأت قوافل السجناء تقبل من خلال الممرات الضيقة الظليلة , و على وجهها تعابير دهشة و قلق .

تجمع فوري في المركز . . .

هذا هو الأمر الذي تلقاه سجناء الغابة دون أي تفصيل .

لذا كان من الطبيعي أن يدهشوا أو يقلقوا , أنه أمر لم يحدث حتى الآن . . .

ما الخبر ؟ كان هذا هو السؤال الوحيد الذي بقي بلا جواب بضع ساعات مرهقة .

اجتاز حمد الممر الواسع الذي اعتاد أن يسير فيه و هو يدفع عربة الحديد المحملة بأخشاب الغابة , بين الأكداس الهائلة من الجذوع التي كانت ترتفع عدة أمتار في الفضاء المكشوف , مكونة سورا» هائلا» ضخما» حول المركز , لم يجد شيئا» يلفت الانتباه سوى الأعلام المثلثة الألوان التي كانت ترفرف متعانقة فوق سقوف المهاجع و في شرفات الأبنية الرشيقة المخصصة للضباط و ضباط الصف.

أمر السجناء بالوقوف في رتل ثلاثي في ركن من أركان الباحة , مكشوفي الرؤوس , ليؤدوا التحية للحاكم الجديد مسيو شينال , و هو الاسم الذي لا يزال حمد يذكره .

و عند الظهيرة دوت نداءات الاستعداد , و دبت في المركز حركة مفاجئة بين الحراس , في حين تسمر السجناء في صفوفهم , بأزيائهم الشديدة الغرابة , يتصبب العرق غزيرا» فوق جباههم وأعناقهم دون أن تتحرك يد و لو خلسة لمسحه .

و اندفعت فجأة من خلال أحد الممرات عربة يجرها جوادان ضخمان و هي تقرقع فوق الأرض الجافة المكشوفة .

دوى بوق التحية , و رفعت قطعة من الحراس بنادقها إلى أكتافها استعدادا» لتقديم السلاح و قد وقف على رأسها ضابط شاهر سيفه الذي راح يلمع تحت أشعة الشمس الاستوائية ببريق باهر .

كان لحمد مثل تلك العربة التي اقتحمت الباحة مجلجلة مقرقعة و كان له مثل هذا السيف المشرق و ومثل تلك الخيول أيام شبابه ... أما الآن ...

و سرعان ما اقتلعه من تفكيره صوت يدوي بالتحية , و ارتفعت الأيدي إلى الجباه اللزجة , و تسمرت فوقها , في حين تعلقت كل الأنظار في اتجاه القادم الجديد .

أزيح الستار مثل ستار هوادج الشرق , و أطلت منه قبعة بيضاء ثم رأس نسائي .

و مد أحد الضباط يدا» يساعد بها السيدة التي قفزت إلى الأرض و هي تنفض ما علق على ثيابها البيضاء الواسعة من غبار و تصلح من شعرها و قبعتها .

و قفزت إلى جانبها صبية رشيقة ممشوقة وقفت تتطلع مشدوهة في هذا الجو الغريب , غرابة الأساطير , و تبعهما رجل طويل كهل ملئ الشيب الشاربين يرتدي قبعة المعمرين البيضاء الواسعة , و بذلة ناصعة البياض و هو ينفض ما تبقى من غليونه , ثم يدسه في جيبه و يتقدم نحو الضابط الصغير الذي راح صوته يدوي بالتحية و هو يلوح بسيفه في حركة دائرية ثم يرفعه قليلا» في الفضاء ليثبّته أمام وجهه الذي بدا عصبيا» صارم التقاطيع , في حين كانت الأيدي تدق البنادق دقا» في حركة إيقاعية واحدة .

وقفت السيدة و الفتاة في المكان الذي نزلتا فيه و هما تحركان مروحتين واسعتين أمام وجههما , و قد بدتا مشدوهتين أمام هذه المسرحية الغريبة الحية .

أما الرجل الكهل فقد تقدم يرد التحية ثم يوعز للضابط بأن يأمر بالاستراحة تلكأ الضابط الشاب قليلا» , و هو يعلم أن الاستراحة تأتي بعد إنهاء جولة التفقد , إلا أنه سرعان ما راح صوته الناعم يدوي و هو يأمر بالاستراحة بعد أن حدجه الحاكم الجديد بنظرة خاطفة قاسية .

تقدم الحاكم من رتل السجناء ثم تناول غليونه فجأة ثم أشعله بهدوء و هو يطلب إلى الضابط المرافق أن يسمح للشباب بمسح عرقهم المتصبب و

بارتداء قبعاتهم التي كانت معلقة إلى جنوبهم , ثم راح يصافحهم واحدا واحدا , و يسألهم عن أسمائهم و بلادهم ...

تلعثم المساكين و قد عقدت الدهشة ألسنتهم و تضاربت في رؤوسهم شتى الأفكار و الاحتمالات و ظلوا رغم التشجيع و الابتسام ينظرون باستغراب و ريبة و قلق إلى هذه المفاجآت التي لم يألفوها .

عربة و خيول ... نساء في أحضان الغابة ... حاكم يرتدي الزي المدني ثم يبتسم و يصافح ... شيء غريب و مثير حقا» ...

و عندما مد يده ليصافح حمد كان السجين القديم قد تمالك نفسه و استعاد شيئا» من هدوئه و صفاء ذهنه .

- اسمك .

- حمد عباس ذياب من السويداء سورية , محكوم بعشرين سنة أشغال شاقة و مثلها نفي , قضيت منها حتى الآن ما يقرب من أربع عشرة سنة ...

- وما هو عملك الآن ؟ ...

- أقطع الخشب في أحضان الغابة و أنقله مع زميل لي إلى هذا المركز ...

- هل لك أي رغبة أو ملاحظة ...

وجم حمد قليلا» ثم تمتم , ...

- نعم ... و لكن ...

- و لكن ماذا ؟ ... لا تخف ... تكلم ...

ثم ربت على كتفه باسما» مشجعا» , فانطلق حمد بشيء من الثقة بالنفس :

- سيدي ... هل تأمر لي بترجمان .

و انبرى واحد من السجناء بأمر الحاكم ليقوم بمهمة الترجمة .

- سعادة الحاكم : بالنسبة لي , أنا لا أطلب شيئا» , إن عملي في الغابة

متعب مرهق و لكني أتحمله بصبر , أما الشيء الذي لا يحتمل يا سعادة الحاكم فهو البعوض الذي أوصلنا جميعا» إلى المستشفيات , و أوصل بعضنا إلى المقابر . .

و هنا تقدمت السيدتان يدفعهما الفضول و توقفتا خلف الحاكم تصغيان بكثير من الانتباه و التشجيع . . .

و تابع حمد . . . لا يسمح لنا بالغسيل و لا بالطعام في الصباح , و عند الظهر يكون الغداء تافها» .

و انطلقت من خلف الحاكم صرخة ناعمة : - برافو . . . تابع . . .

و تجهم وجه الضابط و احتقن و راح يحدج السجين الجريء بنظرات الوعيد يختلسها من حين إلى حين , إلا أن ذلك لم يخفف شيئا» من حماسة حمد و انطلاقه :

- سعادة الحاكم , في المساء عدس مسّوس , و الشيء الأهم من كل هذا يا سيدي أننا نعامل هنا معاملة الثيران , لا معاملة البشر . . .

ثم توقف و قد أحس بالنار تغلي في عروقه غيظا» و حقدا» إلا أنه سرعان ما راح يهدئ من أعصابه المتوترة و هو يمسح عرقه المتصبب .

- يا سعادة الحاكم . . . يكفينا من العذاب هذا الجو المحرق الخانق و الحرمان من أهلنا و وطننا و من البشر , إذا أمرتم بتحسين معاملتنا شكرناكم و إلا فإن شكوانا إلى الله .

مسحت السيدة خلسة دمعة راحت تترقرق على خدها , أما الفتاة فقد كانت تتمتم خلف والدها بصوت مسموع :

- هذا رهيب يا أبي . . . رهيب .

و نفض الحاكم عيونه و هو يتمتم .

- طيب . . . سنرى . . .

ثم أعطى الأمر للسجناء بالتفرق و تقدم نحو المقصف المعد له و هو يضرب أعلى ساقه بغليونه المطفأ في حركة عصبية ظاهرة .

ما كاد الحاكم يدخل القاعة الفسيحة المزينة بالأعلام و الزهور الاستوائية , و المصابيح الصينية حتى تقدم صف ضابط من حمد يستدعيه لمقابلة مدير المركز . . .

وقف حمد أمام المدير وقفة الاستعداد و هو يحس بأن شرا» سيحدث , لقد كانت تصريحاته فضيحة و سيكون العقاب قاسيا» .

إلا أنه بدا راضيا» مطمئنا» , حدجه المدير بنظرة حقد صارخة و هو يتمتم في شبه عربدة :

سالو . . . , و أشار إلى حارسين من حراسه إشارة خاطفة و إذا بالسجين يكبل و يساق إلى غرفة منفردة جانبية ضيقة شديدة الظلمة عفنة , كأنها مستودع للنفايات , ثم انحنى أحد الحارسين و راح يثبت الحديد برجلي حمد بقسوة و لؤم و هو يلوح بالسوط و يهدد بصوت أجش و لهجة بعيدة عن اللهجات الفرنسية التي تعود حمد سماعها .

ضاقت الدنيا في عينيه و ازدادت ظلمة الزنزانة ظلمة و عفونة و أحس بدافع ملح صارخ يدفعه إلى أن يضع حدا» لحياته , هذه الحياة التي طالما تمسك بها من أجل أمه و وطنه , أما الآن فلم يعد للحياة قيمة , كفاه صبرا» , كفاه ذلة . . .

و تطلع حوله و هو يختنق غيظا» و حقدا» و مد يديه إلى إبريق من تنك , في زاوية من زوايا قفصه الخانق , تحسسه , ثم شمه , و بحركة لا شعورية خاطفة كان يكرع ما فيه كالمجنون .

و في الباحة كان الحاكم يطلب أن يتفقد ورشات العمل في مراكز التجمع الأخرى و تقدم الضابط الشاب يعتذر بأن العربة لا تستطيع أن تتغلغل في الغابة , و أن العادة قد جرت على أن تهيأ عربة جديدة من عربات العمل للتنقل بين مراكز التجمع , و تقدم الحاكم تتبعه أسرته من العربة المعدة, كانت تشبه في ترتيبها إلى حد كبير العربة التي أوصلتهم إلى هذا المركز , ستائر ملونة و فرش مغطاة بقطع من السجاد المغربي و مساند مزركشة و علم صغير مثلث الألوان يرتفع فوق مقدمتها , و قد وقف خلفها سجينان عملاقان وقفة الاستعداد العسكرية .

استدارت السيدة بشيء من الاستغراب و الدهشة نحو الضابط الشاب و هي تسأل مشيرة إلى العربة و السجينين :

- ما هذا ؟ . . .

- مدام , أجاب الضابط , بشيء من التردد , الخيل لا تصلح للغابات , و لهذا فنحن نضطر أن نكلف المساجين بهذا العمل .

توقفت السيدة فجأة و هي تصرخ و تضرب الأرض بقدمها :

- لا . . . لن أسمح لأي إنسان أن يجرني , ثم التفتت نحو زوجها و هي تحاول أن تهدئ من ثورتها :

- أعتقد أنك توافقني يا عزيزي ؟

- نعم يا ماما , بابا موافق . . .

تمتمت الصبية الممشوقة الشقراء بصوت ناعم كأنه يسترحم . . .

أعطي الأمر للسجين بالانصراف , و عادت الأسرة كئيبة صامتة كأنها تسير في مأتم نحو المقصف .

و في المقصف انتحى الحاكم و أسرته زاوية يحاولون أن ينسوا متاعب اليوم و مفاجآته في أقداح النبيذ التي ظلت طافحة , لم تمس طوال ساعة من الزمن .

و انطلقت الصبية تحاول أن تبدد ذاك السكون الخانق ,

- بابا . ما رأيك لو استدعينا ذلك السجين الذي أبدا بعض الملاحظات الجريئة و طلبنا منه بعض التفاصيل ربما يساعدنا أكثر على فهم أوضاع المعتقل.

- معك حق يا بنتي . . .

أجاب الكهل و هو يمد يده إلى قدح النبيذ .

- ليكن الآن يا عزيزي , هتفت الزوجة و على صحة نجاحك في عملك العظيم الجديد يا سيدي الجنرال . . .

و تناولت كأسها و رفعتها إلى شفتيها في ابتسامة ساحرة و أشار الحاكم إلى الضابط المرافق , و أفهمه أنه يرغب في أن يقابله السجين رقم .....

و أخرج من مفكرته يقرأ فيها الرقم المطلوب .

حيا الضابط الشاب , و انطلق بشيء من السرعة نحو إدارة المركز ...

قرع الباب فاستقبله المدير , و هو لا يزال يذرع الغرفة في حقد ظاهر .

- سيدي الكابتن : سيادة الحاكم يطلب أن يقابله السجين رقم .....

- إنه هنا ... خذه .

و أشار نحو الغرفة الضيقة المغلقة بكثير من الغيظ و الاشمئزاز و عاد يذرع الغرفة و هو يدمدم و يتوعد ...

فتح الملازم الباب و صرخ في السجين المتكوم في الغرفة الضيقة المظلمة العفنة ...

- ذياب ... أخرج ...

لم يتحرك , لم يختلج ... لعله نائم .

و رفع صوته و هو يزعق ...

- دياب -- اخرج ...

ظل السجين مكوما» على نفسه دون أن يختلج ...

- كابتين ... إليّ ...

أسرع الكابتين ملهوفا» و مسدسه في يده .

- يظهر أنه ميت يا كابتين ...

تراكض الحراس و سحبوا الجثة إلى الممر , و حملوها مسرعين إلى المستوصف القريب , في جلبة و ضوضاء ...

و انحنى الطبيب يفحصه بشيء من الارتباك و القلق , ثم تمتم :

- إنه لم ينتهي تماما» ... قد يعيش ...

عاد الضابط الشاب يرتجف من هول المفاجأة , إنها قمة الفضائح .. .

- سيدي الجنرال ... الرجل في المستوصف ... في حالة خطرة ...

لم يتحرك الحاكم و إن بدت على وجهه إمارات القلق و الضيق , في حين أجهشت السيدة بالبكاء , أما الصبية فقد استأذنت الوالدين لعيادة السجين المحتضر ...

وقفت الفتاة شاحبة مضطربة فوق رأس الشاب المسجّى و قد غطى شارباه قسما من وجهه الشاحب و راح صدره يرتفع و ينخفض في بطء مخيف .

- دكتور ... ماذا حدث ... ؟

- حاول الانتحار بمادة الغريزيل , يمكن إنقاذه إذا كان له حظ ...

و طلبت الفتاة الإذن من الطبيب في أن تسهر إلى جانب السجين , في حين كان الوالد الحاكم يشرف بنفسه على التحقيق .

لم يفارق الطبيب السرير لحظة واحدة و قد أحس بأن وراء هذا الانتحار دافعا» إنسانيا» عميقا» , في حين كانت الفتاة الشاحبة ، تضع يدها فترة بعد فترة فوق معصم السجين تتأكد من نبضه و هي لا تنطق بكلمة واحدة و لا تتحرك , و إن هي راحت تحث الطبيب من حين إلى حين على أن يعمل شيئا» لإنقاذ الرجل .

و عندما فتح حمد عينيه في شبه غيبوبة , لمح عينين زرقاوين بلون السماء تنظران إليه بحنان في إطار من الشعر الذهبي المتماوج ... و عاد من جديد يغمض عينيه و يستسلم إلى النوم كأنه يشد على حلمه الجميل كي لا يهرب من بين جفنيه المتعبين .

و من جديد فتح عينيه و تمتم ...

- أين أنا ؟ ...

و صرخت الفتاة بصوتها الناعم الدافئ

- شد حيلك . . .

و في المساء كانت عربة الحاكم تنقله إلى المستشفى من جديد .

و في السويداء كانت الأم تتلقى بعد بضعة أشهر رسالة من الغويان لم تعد تدري كيف اختفت من الصندوق الضخم المطعم الذي كانت تحرص على أن يضم أثمن ذكرياتها , و لا تزال تتحسر عليها حتى اليوم , و إن هي ظلت تذكرها بالحرف الواحد و قد كانت تطلب من أحد أولاد الجيران أن يقرأها لها حينا» بعد حين طوال سبع سنوات في انتظار رسالة ثانية لم تصل . . .

كان حمد في رسالته يسأل عنها باهتمام و قلق , و يسأل عن أخيه الذي عرف في رسالة قديمة سابقة تلقاها أن اسمه سلمان و أنه الآن في الخامسة عشرة من عمره تقريبا» , و يعجب لماذا لا يكتب إليه , أن الفتى في هذه السن يعتبر في الجبل رجلا» يحس بالمسؤولية و يتحملها , ماذا حدث له ؟ لو كان حيا» لما بخل عليه في الكتابة , يجب أن يكتب إليه . . . يجب . .

و يسأل كذلك عن أخبار الأهل و الجيران , عن أخواته الثلاث و ما هي أحوالهن . . .

أما أخباره هو فقد كانت طويلة فيها المشجع و فيها المحزن المؤلم . . .

تعرف بحسين العاقل من المجدل و هو يكلف أمه أن تخبر أهله بأنه بخير و بصحة جيدة .

صار له حادث دخل على أثره المستشفى و لقي من ابنة الحاكم كل اهتمام و تشجيع , و استفسرت منه عن أسباب نفيه إلى الغويان و أخبار المعتقلات و الغابات بالتفصيل , و عندما عرفت و تأكدت أنه محكوم سياسي لمحت أنها لا تمانع في أن تعيش معه في تلك البلاد أو في فرنسا , إلا انه اعتذر بكل بساطة بأنه مريض و لا يصلح للحياة الزوجية .

و مع ذلك فإنه سيظل يذكر اهتمامها به و سهرها عليه بكل امتنان , و لا تزال إم حمود تذكر أن حمد كان شديد الاعتزاز في رسالته بأنه خاطب الحاكم

بشجاعة من أجل تحسين حالة المعتقلات و أن الحاكم استجاب إلى مطاليب ولدها , وزع الناموسيات على جميع السجناء , و أمر لهم بطعام الصباح , و حسن الأكل تحسينا» ملموسا» . و أهم من هذا كله انه رفع عن المساجين كل الأعمال البشعة التي كانوا يرغمون على القيام بها , لا جر خشب و لا جر عربة الحكام , و إنما أعمال معقولة مثل الأعمال التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان يشتغل في مصلحة حكومية .

و عندما خرج من المستشفى استدعاه الحاكم و أكد له أنه طلب من رؤسائه في باريس صلاحية لمنح عفو عام عن المساجين القدامى و تخفيض مدد المساجين الجدد .

و لا تزال إم محمود تذكر أيضا» أن ولدها كان شديد الثقة بالله في أن العفو سيصدر و أن العودة إلى الوطن بحول الله قريبة . . .

و تضيف إم محمود أنها أرسلت إليه رسالتين واحدة باسمها و الثانية باسم سلمان إلا أن حمد أكد لها عندما عاد بأنه لم يتلقى أية رسالة طوال سبع سنوات فقد وقعت الحرب العالمية الثانية خلال تلك المدة و انقطعت أخباره انقطاعا» تاما» حتى كادت أمه أن تصدق الشائعات القوية التي راجت عن موته و لم يبق في السويداء من يعتقد بعودة حمد إلا هي . . . إنها ظلت تعتقد بلقاء ولدها و إن احتجبت أخباره طوال سبع سنوات كاملة إلا أنها ظلت خلال تلك المدة لا تفتأ عن زيارة الأولياء و عن الدعاء المضطرم إيمانا» و ثقة , و إن كانت عيناها قد عشيتا من البكاء و جفناها تقرحا من الهم و السهر و اللوعة . . .

و عندما وقفت ذات يوم بحسرة و ذلة في باب الحاكم بالسويداء تسأل عن مصير ولدها , كان الجنرال يجيب بشيء من الاستخفاف و بشيء من الشفقة:

- الله وحده يعلم !

الفصل الثاني عشر

كان قد مضى على حمد خمسة عشر عاما» في الأشغال الشاقة المختلفة في الغابات و المعتقلات المسوّرة عندما أبلغ مع عدد من رفاقه بأنه قد أعفي من السنوات الخمس الباقية من مدة حكمه و أنه يستطيع أن يقضي مدة منفاه في الجزيرة .

لم يكن الخبر بالنسبة إليه مثيرا» أو مبشرا» , فالحياة في الجزيرة لا تختلف كثيرا» عن المعتقل , إنها على ما ترامى إليه , و ربما تأكد منه , معتقل أوسع , و ربما كانت حياة السجون على شقائها و إرهاقها أكثر هدوءا» و اطمئنانا» و أضمن سلامة .

ومن ثم فإنه إن استطاع أن يقضي هذه المدة في المعتقل قادرا» على الكفاح من أجل البقاء فهل يجد في العشرين عاما» القادمة القدرة على الحياة و قد بدأ الشيب يدب في عارضيه و بدأت التجاعيد ترتسم على جبينه المكدود النحاسي , غائرة متشابكة , و هو لا يخرج من المستشفى إلا ليعود إليها جريحا» أو محتضرا» أو مرتجفا» من البرداء أو إلى غرفة العمليات . . .

لم يبد حزينا» أو فرحا» عندما أبلغ إعفاءه من السنوات الخمس الباقية من الأشغال الشاقة . و إنما بدا كئيبا» قلقا» و هو يواجه مرحلة العشرين سنة القادمة من النفي في الجزيرة الرهيبة .

و مع ذلك فقد أخذ يشعر شيئا» فشيئا» بأنه سيكون أحسن حالا» : إنه على أبواب حرية طالما اشتاقها و إن كانت حرية منغصة .

كانت أولى مفاجآت هذه الحرية أن أعطي بذلة مدنية , و استعيدت منه بذلة المهرّج ذات الألوان الشبيهة بجلد الحمار الوحشي , و تخلص من ذلك الحافر الخشبي السمج .

آه : ما أجملها هذه البزة التي أحس معها حمد بأنه يستعيد إنسانيته , إنها قديمة شبه بالية مجعدة تلمع فيها بقع الزيوت المختلفة , إلا أنها بذلة إنسان . . . إنسان من البشر . . .

قبل رفاقه و شد على أيديهم بحرارة أودعها كل ما في قلبه الطيب من تمنيات و تشجيع .

ثم ألقى نظرة وداع طويلة على تلك الثكنات الواسعة الضخمة و الأسوار العالية ذات الأنياب الزجاجية الرهيبة , تلك الأسوار التي بدأ يشعر الآن نحوها شعور مودة لا شعور حقد و ثأر .

ألم يودع فيها جزءا» من شبابه ؟ ألم تكن مسرحا» لذكريات و صداقات و مصير مشترك و تعاون ؟ .

ألم تكن شاهدا» على الصراع النفسي الهائل الذي خاضه بين بوارق الأمل و دياجي اليأس القاتل ؟ بين فترات التردد و الضعف البشري و بين الصمود و التحدي ... و أخيرا» ...

لماذا يحقد ؟ ألم يكن هو من القلائل الذين انتصروا عليها و لو بالصبر و المكابرة و الذين راحوا ينظرون إليها نظرة الظافر المشفق و هي تغيب في أحضان الغابة الظليلة المتشابكة الواسعة من خلال الممر الضيق الذي بدا مظلما» رغم أشعة الشمس المحرقة التي كانت آنذاك تنسكب على الأرض كالمعدن المصهور .

كان يسير وحيدا» في اتجاه الميناء , يدس يده في جيب ردائه المهلهل بين الحين و الحين يتحسس الوريقات الملونة التي تثبت هويته و العفو الصادر عن بقية مدته في الأشغال الشاقة . و تعليمات الأمن المتعلقة بسلوكه المقبل في المنفى و من ثم تلك الرسائل التسع الوحيدة التي تسلمها من أمه طوال خمسة عشر عاما» .

و هل يذكر حمد أنه تسلم غيرها من الوطن ! ...

و هنا توقف يشعل السيكارة الوحيدة الأخيرة , ثم انطلق و هو يتمتم ...

لماذا لم يكتب إلي أحد ؟ لي أصدقاء في الوطن ! ...

لي أهل و معارف : لماذا نسوك يا حمد , ربما ظنوا أنك لن تعود و أنك لن تعاتبهم ؟

و لكن ... ربما كانت المراقبة العسكرية تمنع وصول رسائلهم إليك . . . لا أظن ... لأن بريد المعتقل الأسبوعي لم يكن بخيلا» على الرفاق الآخرين آه ...

كم كان الواحد منهم يبدو سعيدا» عندما كان يقرأ أو يطلب من رفيق له أن يقرأ له رسالة من صديق قديم أو قريب مشتاق : ... أما هو فقد كان يشعر بخيبة أمل يشعر بغصة ... باحتراق . عندما كان ينظر إليهم في المهجع الواسع و هم يتلون الرسائل تلاوة الأناشيد الدينية ...

لماذا ؟ ... لماذا لم يذكرك أحد سواها ؟ ...

هل كان عملك مشينا» أو مخلا» بعادات قومك يا حمد حتى تعامل بمثل هذا الجفاء و الإهمال ؟ !.. هل جبنوا بعدك و ذلوا ؟ لا أظن !... لا أظن فهو لا يزال يذكر أغنية رفيقه بن عمار الذي طالما شكا مثله نسيان الأهل و الأصحاب ...

تو مدّة ما جاني جواب

دمعي على خدي سكاب

أولاد عمي اثنين نسيوني

يا قلال الدين ! لو كان إنتو مربوطين

نبيع عليكم ما نكسب ... آه ...

تو مده ما جاني جواب ...

و قفز من فوق رأسه سعدان صغير راح يقهقه و يرقص بمرح في أعالي الأغصان و هو يرمي الشريد الغريب بنظرات دعابة و سخرية .

انتفض حمد و ود لو كان مسلحا» لأدب به قرود الغابة كلها ... إلا أنه ما عتم إن ضحك ضحكة خافتة من تلك الفكرة السخيفة التي راودته .. . و من ثم لم يتمالك أن رفع صوته بالغناء غناء حزينا رتيبا ضائعا في أعماق الغابة الراكدة السوداء .

هـا هـي المدينـة , القريـة الكبـيرة , تطـل مـن وراء فسـحة مـن الأرض مكشـوفة ترتفـع عـلى جنباتهـا الأسـوار الهائلـة مـن الأشـجار الاسـتوائية الضخمـة المتشـابكة , و هـا هـو البحـر اللامتناهـي الشـديد الصفـاء و الركـود كأنـه بحـر مـن زيـت , تتراقـص فوقـه بـدلال و رشـاقة أشـعة الشـمس المتوهجـة و يسـطع بريقهـا فـوق أسـطحة الزنـك المنتـشرة في الأحيـاء الأوربيـة مـن المدينـة , القريـة التـي زارهـا حمـد مـرة بعـد مـرة في أعـمال السـخرة أو فـوق محفـة إلى المستشـفى , و هـو يعـرف لمـاذا تدعـى (كايـان) أي قابيـل قاتـل أخيـه هابيـل . .

خيـل إليـه أنـه يقبـل عـلى معتقـل جديـد أشـد شراسـة و غلظـة مـن المعتقـل الـذي ودعـه منـذ سـاعات, و لكـن لا . . . إنـه سـيكون هنـا حـرا» و سـيعرف كيـف ينتـصر و لـو بالصـبر و المكابـرة . . . يجـب أن يحيـا . . . يجـب أن يعـود إلى أمـه و وطنـه . . .

دخـل أزقـة المدينـة الترابيـة , لم يلتفـت إليـه أحـد , لم يهتـم بـه أحـد . . . لم يسـلم عليـه أحـد , هـو لا يعـرف أحـدا» و لا أحـد يعرفـه مـن النـاس القلائـل الذيـن كانـوا يمـرون بـه بعضهـم بثيـاب أوروبيـة مزريـة و مقبولـة و بعضهـم عـراة . . . إلا مـن قطعـة قـماش , قطعـة قـماش واحـدة بحجـم الكـف يربطونهـا بخيـط مـن أليـاف الأشـجار حـول حقوبهـم , و بعضهـم الآخـر عـراة ،عـراة تمامـا» كـما ولدتهـم أمهاتهـم حتـى النسـاء .

سـأل عـن نقطـة البوليـس , فأُرشـد إليهـا , إنهـا إلى جانـب الميناء الـذي كان خاليـا» مـن المـارة آنـذاك حتـى مـن العـمال . . . شيء مسـتغرب , كان الميناء دائمـا» و أبـدا» في حركـة مذهلـة مدهشـة , طوافـات تحمـل الأخشـاب و البراميـل و البضائـع و الحيوانـات و المسـاجين و المسـافرين ذاهبـة آيبـة أمـا الآن فركـود . . . ركـود غـير طبيعـي . . . مـاذا حـدث ؟ ! .

- أنـت مـن سـورية . . . مـن الـشرق . . . أنـت محكـوم الآن في البقـاء في هـذه الجزيـرة عشريـن سـنة , عقوبـة المـوت تنتظـرك إذا حاولـت أن تغادرهـا بـلا إذن منـا انتبـه . . . و الآن أدلـك عـلى واحـد مـن بـلادك اسـمه محفـوظ , صاحـب مطعـم في السـاحة الرئيسـية بالبلـدة يمكـن أن يرشـدك إلى عمـل تعيـش منـه . . .

كـن عاقـلا» . . . في رأيـي أن عشريـن سـنة في المنفـى خـير مـن المـوت رميـا» بالرصـاص . . . رصاصـة واحـدة لا تكلفنـا شـيئا» . . . مفهـوم . . . خـذ . . .

و انحنـى ضابـط البوليـس القصـير الثخـين يفتـح درجـا» و يقـدم إليـه حفنـة مـن الفرنـكات . . .

- ضـع بصمتـك هنـا عـلى هـذه الورقـة . . . انتبـه هـذا المبلـغ لا يكفيـك أكـثر مـن أسـبوع . . . المبـدأ هنـا مـن لا يعمـل يجـب أن يمـوت جوعـا» . . . مفهـوم . . .

ظـل حمـد واقفـا» وقفـة الاسـتعداد . . . لم يتعـود أن يمـد يـده . . . أنـه لـن يبـدأ بالتسـول بعـد خمسـة عـشر عامـا» مـن الأشـغال الشـاقة .

كادت الدمعـة تفـر مـن جفنـه , و لكنـه اسـتطاع أن يحبسـها و هـو يعـض عـلى شـفته مـن القهـر , كاد أن يسـتدير و يخـرج مـن المكتـب بـلا وعـي , و تحـرك الضابـط بهـدوء مـن خلـف مكتبـه ثـم تقـدم يربـت برفـق عـلى كتـف حمـد :

- اسـمع يـا رجـل . . . هـذه ليسـت صدقـة . . . إنهـا عمـل قانـوني يجـب أن لا تـتردد إذا شـئت أن تحيـا و أن تعـود يومـا» مـا إلى بلـدك . . .

تشجع قل لمحفوظ أنا أسلم عليه إنه رجل طيب . . .

سـار كئيبـا» غريبـا» لا يثـير انتباهـه أي شيء , و أي شيء يثـير الانتبـاه في قريـة خامـدة عنـد الغـروب بـلا سـيارات و بـلا دراجـات و لا أي جنـس مـن أجنـاس الـدواب , لا خيـل و لا حمـير , و لا ماشـية, إنهـا بـلاد زنـوج فقـراء مشرديـن عـراة يتقاسـمون ثمـار الطبيعـة و بعـض بقولهـا مـع الجماعـات مـن السـعادين التـي تبـدو أكـثر سـعادة و مرحـا» ؟ ! .

و عندمـا أقبـل عـلى السـاحة العامـة كانـت الأزقـة الضيقـة مظلمـة خاليـة تجوبهـا بعـض الـكلاب الشـاردة و بعـض دوريـات الحراسـة , و كان بعـض النـاس القلائـل بأزيائهـم الأوربيـة أو بعـض الزنـوج النصـف عـراة يغادرونهـا و يتغلغلـون في الأزقـة الفرعيـة التـي راحـت تتحـول إلى قطـع مـن الليـل الدامـس السـاكن .

و لم يصعـب عـلى حمـد أن يهتـدي غـلى مطعـم محفـوظ فقـد كان في أقـصى الباحـة بـاب زجاجـي وحيـد يشـع منـه ضـوء قنديـل خافـت و تلـوح في داخلـه بعـض

المقاعد المنخفضة و بعض الصحون و الأكواب و القناني . . .

قرع الباب بيد مترددة , و انتظر , لم يسمع أي جواب , إلا أنه أحس بوقع أقدام تنزل درجات سلم خشبي , و لاح خيال إنسان ما لبث أن تقدم يطل برأسه الأشيب و في حذر أشد فتح الباب بيده اليسرى و يده اليمنى خلف ظهره .

إلا أنه لم يلبث أن أدار المفتاح و هو يدس شيئا» أسود في جيب قميصه الأبيض الواسع . .

- أدخل . . . قالها الرجل الأشيب بالفرنسية .

دخل حمد بتردد واضح و هو يلتفت , بقلق و جلس وحيدا» حزينا» في قاعة منخفضة واسعة و قد تناثرت حوله الموائد الصغيرة المنخفضة و المقاعد الخشبية السمجة و إن بدت نظيفة .

- اسمي حمد عباس دياب من السويداء – سورية .

- أهلا قالها بلغة عربية و هو يبتسم مشجعا» .

الاسم ليس غريبا» عني , سأتذكر المناسبة , أهلا» . . . كأس نبيذ . . .

- لا شكرا» . . . فنجان قهوة و رغيف . . .

نهض الرجل باسما» , إلا أن حمد لم يجد في تلك الابتسامة أي تعبير واضح :

- إشفاق . . . تودد . . . سخرية . . . استهجان . . --- لا يدري إلا أنه يذكر أن الرجل تسلق السلم الخشبي و غاب فيه ربع ساعة ثم عاد يحمل فنجان القهوة و بعض الطعام و رغيفين . . .

- رأس بصل من فضلك . . .

- بصل . . . (و كانت الابتسامة هذه المرة , ابتسامة إشفاق واضحة) . . . آسف . . .

لا شك أنك لم تذق البصل منذ عهد بعيد . . .

سنجرب أن نحصل عليه معا» إن استطعنا ... اسمع يا حمد ... تذكرت ... تذكرت جيدا» قصتك مع الحاكم ... اسمح لي أن أقبل وجنتيك , آه كل الناس هنا يحسون أنك حاولت أن تضحي بنفسك من أجلهم , كل الأخبار تصلني إلى هنا , كلهم أصحابي لا يكتمون عني شيئا» ...

مدام ! .... صرخ بصوته الجهوري الحلبي ... عندنا ضيف ! ...

ثم التفت إلى ضيفه و أضاف بصوت هادئ .

- الداعي حسين محفوظ من رجال ثورة ابراهيم هنانو -- سأذكر لك التفاصيل في المستقبل , و أظن أن قصتك هي قصتي ... سنرى ...

و في هذه الأثناء كانت سيدة قصيرة نحيفة سمراء ترتدي ثيابا» ضافية و محتشمة و غطاء للرأس تهبط السلم الخشبي و ترحب من بعيد , و عرف حمد فيما بعد أنها فتاة مسلمة من بعض جزر الشرق الأوسط , تعرف بها حسين في المقاطعة الهولندية من الغويان و هما الآن يديران معا» هذا المطعم بانتظار الفرج ...

دعا حسين ضيفه للمبيت عنده , في غرفة علوية منفردة اعتادت أن تستقبل أمثال هؤلاء الهائمين الغرباء , إلا أن حسين كان حذرا في استضافتهم , كان يعرفهم تقريبا» واحدا» واحدا» قبل أن يخرجوا من المعتقلات إلى المنافي , و كان صديقه ضابط البوليس يحذره من بعضهم , و مع ذلك فقد كان مسدسه في جيب قميصه ليلا نهارا .

- اسمع يا حمد ... ربما لاحظت أن ابتسامتي كانت غير طبيعية عندما طلبت مني فنجان قهوة و رغيفا» ...

كان طلبك مفاجأة لي ... أنتم في الغابات لا تعلمون أن العالم في حرب .

فقدت أشياء كثيرة و اختفت من الأسواق , حتى الخبز إن وجدته اليوم فلن تجده غدا» ... أعتقد أن العفو الذي شملك مع كثيرين غيرك كان بسبب الحرب أيضا» .

تصدير الخشب لم يعد ممكنا» فالبحار مليئة بالغواصات و الألغام و

بعض القطعات الألمانية البحرية وصلت إلى شواطئ أميركا , صار السجين يكلف أكثر مما يستطيع أن يقدم من إنتاج .

ثم توقف يشعل سيكارة لزميله و له و راح يستطرد . . .

- أنت الآن و أمثالك أمام تجربة قاسية ستضطرون و سنضطر جميعا» إلى أن نتعود حياة الأهالي البدائيين المتوحشين . . . و لعلك بحاجة إلى الراحة أكثر من نصائحي . . . تصبح على خير.

قال ذلك ثم صافح بحرارة و انسحب إلى الغرفة المجاورة و هو يغلق خلفه الباب بهدوء . .

و في الصباح كان حسين يقدم إلى ضيفه قدحا» من الشاي راح يجرعه و هو لا يزال يتمطى في فراشه .

- اسمع يا حمد . . . أنا أعرف عنك من زملائك أشياء كثيرة و أعرف أنك مصمم على العودة إلى أمك و وطنك . . . انتبه . . . من الآن يجب أن تجمع أجرة الطريق . كل يوم يجب أن توفر من فرنكين إلى خمسة فرنكات , يجب أن توفر مهما كلف , و إلا فإنك لن تخرج من هذه البلاد . .

الأميركان يبنون في داخل الغابات مطارا» هائلا» . . . سأعمل جهدي لتأمين عمل لك هناك .

هز حمد رأسه علامة الشكر , و انطلق يلقي نظرة على البشر , على الحياة على الدنيا , ريثما يحصل على جواب من صديقه الجديد .

عمل حمد في المطار ما يقرب من سنة , كان سعيدا» إلى حد ما , إلا أن السرعة في العمل كانت هي الشعار و لا سيما في حالات الحرب . . .

و هذه الآلات الهائلة التي لم يشاهد حمد مثلها و لم يسمع بها , بعضها ينطح الأشجار مهما كانت صلبة ضخمة مرتين أو ثلاث مرات فإذا هي تهوي في أقل من ربع ساعة , و بعضها يجرها و هو يهدر كما يجر الولد القصبة , و بعضها يدك التلال الصغيرة و يخلع الصخر و يسوي التراب و يمهده . . . و رويدا» رويدا» راحت الشركة تستغني عن عمالها و تسلم المطار إلى القوات العسكرية الأميركية .

عـاد إلى المطعـم يـودع مـا توفـر لديـه مـن مـال لـدى صديقـه الجديـد و هـو فـرح مسـتبشر

- تعمل معي في المطعم . . .

- أجرب

إلا أن التجربـة كانـت فاشـلة فـلا هـو يحسـن الطبـخ و لا هـو يجيـد خدمـة الزبائـن , و لا هـو يقبـل أن يكـون عالـة عـلى المطعـم المتواضـع . . .

- سأعود إلى الغابات . . .

و في الغابـة عـاد إلى الفـأس و الحبـل و الكـوخ الخشـبي , عـاد حـرا» يعمـل لحسـاب نفسـه إلا أنهـا سـتكون حريـة قاسـية مريـرة .. إنـه تعـود العمـل في الغابـة و آلـف الفـأس و الشـجرة .

إلا أن المشـكلة الرئيسـية التـي واجهتـه في عملـه الجديـد كانـت مشـكلة الأكل . . .

في المـاضي كان يحصـل عـلى معلبـات و قطـع جـبن و بعـض الخبـز و العـدس و الفاصوليـا أمـا الآن فـإن أكـثر هـذه الأشـياء قـد فقـدت مـن المدينـة و إن وجـدت فبأسـعار خياليـة لا تسـمح لحمـد بـأن يفكـر في الحصـول عليهـا .

كان لا بـد إذن مـن العـودة إلى الهمجيـة , إلى مأكـولات العبيـد التـي لا يـزال يذكـر منهـا بعـض الأنـواع , الـرز المسـلوق بالزيـت و الكـواك و التايـوف و النيـام أمـا النـوع الرابـع فإنـه لا يحـب أن يذكـر اسـمه إنـه يشـبه كلمـة سـفيهة . و حمـد ككل الجيـل القديـم في الجبـل يتعفـف عـن ذكـر الكلـمات النابيـة , أمـا الكـواك فهـو أشـهرها , إنـه مثـل قصـب الـذرة , يقـول حمـد , ورقـه مسـتدير مثـل ورق التـوت , و لـه عقـد مثـل عقـد القصـب كل عقـدة تنبـت قصبـة , جـذوره تحـت الأرض مثـل اللفـت , و يسـميها الأهـالي (داشـين) تقـشر , تـبرش , تعـصر , ترمـى في حلـة واسـعة و تسـلق ثـم تطحـن و بصـير لونهـا بلـون البرغـل .

هـذا هـو الطعـام اليومـي , لا شيء سـوى الكـواك , الـذي يسـلق في طاسـات و صحـون أو لحـم غـزال أو أرنـب .

أمـا الصيـد الرئيـسي فهـو القـرد الأحمـر , لا يـزال حمـد إلى الآن يتذكـره بتقـزز . . .

أخس : لحم قرود .

و لا يـزال إلى اليـوم يضحـك عندمـا يتذكـر محاولاتـه في تهيئـة طعامـه بنفسـه .

إنـه يعـترف بأنـه لم يسـتطع أن ينجـح في حـين اسـتطاع صديقـه حسـين أن يكـون مـن هـذه المهنـة رصيـدا» لائقـا» منقـذا» .

- اسـمعوا يـا إخـوان . . . و اضحكـوا . . . جربـت أطبـخ الكـواك نفـش مثـل البرغـل و أكـثر نقلـت الطبخـة إلى وعـاء أكـبر نشـف المـاء , زدت المـاء نفـش مـن جديـد . . . قلـت . . . يـا ولـد إذا قضيـت نهـارك في المطبـخ مـن أيـن تعيـش ؟ . . . اتـرك ....

و لكـن الـضرورة ألزمتنـي أن أشـتغل بالنهـار في الأحـراش و في الليـل في الطناجـر و الصحـون . . .

و في بعـض الأحيـان كنـت أصطـاد بالقـوس و النشـاب و بواسـطة كلاب الصيـد , السـلاح ممنـوع في تلـك البـلاد و خصوصـا» أيـام الحرب .

ربك كريم . . . و فرجه قريب . . .

إلا أن الـشيء الـذي لا يـزال إلى اليـوم يـؤرق حمـد و يرعبـه , هـو ذكريـات نقـل الأخشـاب فـوق ميـاه الأنهـار أو الخلجـان العميقـة , و هـو لا يـزال يعتقـد أن تلـك الفـترة مـن حياتـه تعـادل في شـقائها شـقاء عمـره كلـه .

كان عليـه أن يتعـاون مـع زميـل لـه في قطـع الأخشـاب في أعـماق الغابـة لحسـابهما و مـن ثـم كان عليهـما أن يوصـلا الخشـب المقطـوع إلى بعـض المتعهديـن في الميناء .

كان زميـل حمـد الجديـد شـابا» مـن بعلبـك , محمـد عيـد عبـد الكريـم وثـق بـه حمـد ثقـة كبـيرة , فقـد كان محمـد رغـم صغـر سـنه عـلى غايـة مـن الاعتـداد

بالنفس , و إستسهال الموت و العذاب في سبيل الحفاظ على كرامته حتى في ظل القيود و السياط و الزنزانات . . .

كنا نقطع عددا» من الجذوع و الفروع الضخمة القريبة من مياه الأنهار أو الخلجان و خصوصا» قرب النهر الأحمر . اسمه على كسمه لونه بلون الدم , و نتعاون على جر تلك الأخشاب إلى شواطئ المياه نربط الخشبة الاولى بحبال من ليف إلى إحدى الأشجار القريبة ثم نحمل أحد البراميل الفارغة لربطه تحت تلك الخشبة ثم آخر مقابله عن رأس الخشبة الثاني تحت الجذع .

و مثله البرميل الثاني و الثالث و الرابع , ثم نبدأ بربط الجذوع فوق هاتين الخشبتين بشكل طوافة (رادو) .

الكلام سهل أما العمل فلا تتصوروا صعوبته كان على الواحد منا أن يتعرى و يغطس تحت الماء لربط الجذوع و البراميل .

كانت أرواحنا تزهق و أيدينا تكل و عيوننا تزوغ خلال الساعات الطويلة التي كنا نقضيها تحت الماء , و لو كانت الحبال من الحبال العادية , ربما كانت العملية أسهل لكنها من ألياف الأشجار التي لا تطاوع .

كان طول الطوافة حسب الخشب بين خمسة عشر مترا» و عشرين , كان علينا أن نجر هذه الأخشاب الهائلة بمفردنا نحن الاثنين , ألف طريقة استعملنا و ألف حيلة , بعضها نجح و بعضها كاد يقصف أعمارنا .

و بعد ذلك بعد صراع يومين أو ثلاثة مع البراميل و الجذوع و الحبال كنا نركب فوق هذه الطوافة نحن الاثنين , ثم نفك الحبال و نبدأ بتوجيه الطوافة بواسطة مجذافين من جذوع الأشجار .

و تبدأ الرحلة الطويلة القاسية المدهشة المرهقة عندما يبدأ الجزر , كان سيرنا سهلا إلى حد ما و إن كانت تقف في طريقنا عراقيل كثيرة : صخور ناتئة , جزيرة صغيرة , منعطف خطر , ممرات ضيقة , جذوع ميتة طافية , كل ذلك كنا نتغلب عليه بالجهد و الصبر .

إلا أن الشيء الذي كان يهد عزائمنا و يهددنا بالفشل كانت مشكلة المدّ , المدّ الذي كان يدفعنا إلى الوراء محاولا» إرجاعنا إلى النقطة التي بدأنا منها .

التقدم مستحيل و التراجع ليس في صالحنا على الإطلاق . ما العمل ؟ . . .

كان تراجعنا إجباريا» إلا أننا كنا نحاول دائما» أن نقترب من الشاطئ و نجتهد في ربط طوافتنا بأشجاره , ريثما نستأنف رحلتنا مع الجزر الجديد .

لم يكن اقترابنا من الشاطئ دائما» في صالحنا , ففي الشاطئ صخور و أعشاب و ألياف و رمال أو وحول فيها أكبر الخطر على طوافتنا و مع ذلك كنا نغامر خوفا» من أن يحملنا المدّ إلى أقصى مداه في داخل الغابة .

صدقوني , إنني لا أزال أرتعب من مجرد ذكرها , من مجرد تصورها , هدّت شبابي , هدمت صحتي , و لكن كانت هي الطريقة الوحيدة لتوفير خمسة فرنكات كل يوم . . . و إيداعها في نهاية كل شهر عند محفوظ , الله يذكره بكل خير . . .

الفصل الثالث عشر

حمد . . . حمد . . . البشارة لي يا حمد . . .

صوت من هذا الذي يدوي في أرجاء الغابة ؟ . . .

وقف حمد فوق طوافته عاريا» و الماء يسح على جسمه الشديد السمرة و يتساقط رذاذا» من بقايا شعر رأسه و من شاربيه الكثيفين الأشيبين . . . فقد كان يخرج لتوه من قاع النهر يتنفس بعض الوقت ليستأنف عمله المضني تحت الماء .

إنه صوت محفوظ . . . إنه يحمل الأخبار السارة . . . أي أخبار ؟ . . .

- عفو يا حمد . . . عفو . . .

أحس حمد بأن الطوافة تميد به , و بأن الشمس قد غامت , و بأنه يختنق هل يرقص من الفرح ؟ هل يبكي ؟ هل يصدق ؟ !

لم يستطع أن يظل واقفا» , أحس بركبتيه ترتجفان و بقلبه يخفق بحدة . . . و انحنى يحاول أن يجلس ليستعيد شيئا» من هدوئه .

إلا أن محفوظ كان يقفز و يعانقه عناقا» شبه مجنون , ثم يلتفت إلى زميل حمد إلى محمد عيد مشجعا» :

- أعتقد أنه عفو عام . . . ما أحلى الفرج بعد الضيق . . . الحمد الله الحمد الله . . .

جلس حسين في مكتب صديقه مدير البوليس يستفسر عن طريقة مغادرة الجزيرة و العودة إلى الوطن و كان المدير يؤكد لهم دائما أنهم لا يستطيعون مغادرة البلاد دون تأشيرة قنصل , دون فيزا , و من ثم فإن أجرة الطريق يتحملها المسافر نفسه .

من أين لسورية قنصلية في الغويان ؟ و لما لم يمض على استقلالها بضعة شهور .

أما أجرة السفر فأمر أقل صعوبة و إن كان العفو مفاجأة لم يتوقعها أحد حتى حسين نفسه

ما اشد مرارة تلك الليالي التي قضاها حسين و حمد و رفاقهما في انتظار حل لتلك المشكلة , ما أشد قسوتها , غريق على شاطئ البحر يتحسس صخرة النجاة و لكنه لا يستطيع أن يجد موضعا ليده فيها

إلا أن حسين استطاع أن يمكن يده و يد رفاقه من الصخرة العاتية : الفلوس . . .

فتح مدير البوليس كفه و قبض أربعة آلاف فرنك . . . أجرة عامل كاملة لمئة يوم , و مد المنفيون العائدون المحظوظون يد المساعدة و المعونة بسخاء و شهامة إلى رفاقهم المعوزين . . .

لم يحاول أحد أن يخفي شيئا» ! هذا كل ما أملك ما زاد عني خذوه و أعطوه لمن يحتاج من رفاقي . . .

و أقبلت الباخرة تتهادى . . . ما أجملها ! . . . ما أعظمها ! قد تكون هي نفسها التي حملتهم إلى المنافي . . . قد تكون هي نفسها التي كانوا

يسخّرون لتفريغها من البضائع و الأبقار و مع ذلك فقد بدت في أعينهم اليوم في غاية الجمال و العظمة و الروعة . . . إنها تكاد تضحك لهم , تكاد ترقص . .

هل يصدقون حواسهم بأن الطوافات تحملهم إليها أحرارا» بعد عبودية و عذاب رهيبين طوال عشرين إلى خمسة و عشرين عاما» ؟ ! .

و بأنهم يخرجون أحياء من مدينة قايين حفارة قبور الغرباء و من الغابات الرهيبة الوالغة في دمائهم و دموعهم و عروقهم . . .

كانوا يؤمنون و ظلوا يؤمنون بأنهم عائدون . . . عائدون إلى الوطن . فلماذا ارتابت حواسهم اليوم بما آمنت به قلوبهم طوال أعوام طويلة مريرة . .

إنهم بشر معذبون . . . يعيشون على الأمل , على الوهم , و هاهم مثل جميع البشر يضطربون , يتلجلجون في اللحظة ذاتها التي يتحول فيها الأمل أو الوهم إلى سعادة .

إنهم يخافون أن تكون تلك السعادة من بعض أوهامهم الكثيرة التي عاشوها و من بعض أحلامهم التي ما تلذذوا بها ساعة إلا و تجرعوا مرارة خيبتها ساعات . . .

و انطلقوا يتحسسون سلالم الباخرة و يشدون عليها بأيديهم و قلوبهم , و هم يتلمسون أشياءهم القليلة التي يحملونها , و يبتسمون بسخرية من أدوات السفرة التي تجبرهم أنظمة الباخرة على اصطحابها , شوكة , سكين , ملعقة . . . .

شوكة و سكين لجماعة عاشوا على العدس و الكواك طوال عشرين عاما» أو أكثر . . .

من منهم يعرف كيف يحرك يده بها دون أن يضحك هو من نفسه ؟ ! .

و عندما بدأت الباخرة تتحرك و هي تنفث الدخان و الصفير المبحوح كانت الأيدي ترتفع مودعة و تلوح للفضاء , للأفق , للغابات الكثيفة السوداء لمدينة التنك و الأكواخ العبودية , للذل ، لكرامة الإنسان المهدورة، لشبابه المتلاشي في ذكريات الدم و الدموع و السياط و الزنزانات , للرفاق الذين ما زالوا يرسخون في أغلال الرق و هم يتطلعون إليهم بمزيج من مرارة و فرح . . .

كانت الأبصار معلقة في تلك البقعة الداكنة الخضرة ، الشديدة السكون حتى الموت تحدّق فيها و هي تبتعد شيئا» فشيئا» ثم تصغر و تصغر حتى تختفي مثلما يتلاشى الدخان في الفضاء .

و في المساء كانت السماء في غاية الصفاء و النجوم في غاية الزهو , و النسيم في غاية الرقة , عندما راح حمد يستلقي فوق كرسيه البحري الطويل و هو ينفث دخان سيكارته في هدوء و سكون .

لقد كان يستلقي في كثير من الليالي في كوخه في الغابات خلال الأعوام العشرة الأخيرة , كان النسيم يداعب خصلات شعره في بعض الليالي و كانت النجوم تبدو لامعة و السماء صافية جميلة عظيمة .

إلا أنه لم يستطع أن يصدق نفسه بأنه قد رآها في ليلة من تلك الليالي في مثل هذه العظمة و الجمال و الروعة و لم يستطع أن يصدق نفسه في أن نسيما» في نعومة هذا النسيم و في لطفه قد مر به .

جس علبة الدخان الفارغة ثم رماها فوق الأرض الخشبية , و مد أصابعه الناحلة إلى علبة جديدة راح يفتحها بتمهل و هو لا يزال يغرق عينيه في السماء الصافية المتلألئة .

الناس حوله غارقون في النوم أو في أسرتهم و بعض البحارة يتناوبون العمل في هدوء , أما هو فقد أحس بأنه على غاية من الراحة و السعادة في جلسته التأملية الحالمة . . .

أمس سياط و سجون و حرمان . . .

أمس خوف و جوع و مرض و حنين . . .

و هاهو الغد المشرق الطلق , غد الحرية و الكرامة . . .

غدا تطل أرض الوطن , غدا يطل الأهل و الأصحاب . . . غدا تهرع العجوز تشد بيد على لثامها و تلوح بيد للقادم الأشيب الناحل المتهدم . . .

ستعرفه بقلبها بغريزة الأمومة فيها , و قد تكذب عينيها و أناملها , و هل يكون ذلك الفتى الأسمر بشاربيه الأسودين النحيفين و قامته المليئة

المنتصبة كالرمح و عينيه المتوقدتين و شعره الفاحم المسترسل , و هل ذلك الفتى الباسم الشديد المرح كعصافير الدوري , هو الشيخ الضامر بقبعته و خده الناتئ و عينيه الغائرتين , و جسمه المقوس , الناحل , المتجهم , المعروق , الشاحب العليل . . .

و لكنها لن تحزن سيكون فرحها كبيرا» عارما» به . . . يكفي أنها ستضمه إلى صدرها و ستسمع دقات قلبه النابض بالشوق و الوفاء .

و أحس حمد بجمرة السيكارة تلذع أنامله فرماها في حركة مذعورة و داسها بحذاءه مرة بعد مرة ، و من ثم سار متمهلا» نحو غرفته في حين كانت تباشير فجر هادئ شديد الصفاء تبدو في الأفق البعيد .

و لذّ لحمد أن يستلقي كل ليلة فوق كرسيه الطويل ينفث دخان سيكارته بهدوء غارقا» بين ذكريات الأمس و أحلام الغد , لا يغفو إلا مع إشراقه الفجر , حتى صباح اليوم الثامن عندما أطلت من بعيد الأرض الداكنة الخضراء أرض المارتينيك . . .

تذكر كيف أقبل بالأمس على الغويان و فوق صدره أثقال العبودية و في عينيه ظلام المستقبل الرهيب , أما الآن فقد كان يقبل بقلب عارم بالفرح و الأمل , و بنشوة العائد من معركة عنيفة مرهقة منتصرا» . . .

كان المركب الكبير , عابر الأطلسي , ينتظرهم لقد بدت باخرتهم إلى جانبه طوافة كبيرة , و هاهم يتجولون في أرجائه الشديدة الأناقة و النظافة في مطعمه الواسع المزدان بالصور الجميلة و الكراسي الجلدية الشديدة اللمعان و الموائد المكسوة بالشراشف البيضاء الناصعة , و المزينة بالزهور و الأقداح المشرقة , و ها هو الجرسون ينحني باحترام و أدب أمام الطاولة و هو يوزع الطعام الشهي فوق صينية كأنها من فضة خمسة صحون لكل مسافر . . .

يا حمد . . . هل تحلم ؟ ! . خمسة صحون أمامك , تعبق رائحتها الشهية بأنفك , و شاب وسيم باسم يسألك بلطف و بشاشة عن المشروب الذي ترغب . . .

في المساء موسيقا و رقص و طرب , و في النهار أحاديث و زيارات متبادلة و لهو , و في غرفة النوم سرير كالفل , كالياسمين , و جرس يكفي أن تضع أصبعك عليه حتى يهرع عامل ينحني باسما» و هو يرجو أن يقدم لك خدمة .

و عندما كان المركب الكبير يتوقف بعض الوقت في جزائر الغوادلوب و الترينيداد كان يسمح بالنزول إلى اليابسة و لا يزال حمد يتذكر انه عندما راح يتجول فيها تعرف إلى بعض أبناء العرب المهاجرين , و مع أنه يأسف لأنه نسي أسماءهم مع الزمن , إلا أنه لا يزال يذكر بأنه , بل و للمرة الوحيدة في حياته يبدل بعض قطع العملة التي يحملها ليشتري قنينة كولونيا . . .

لقد رآها تتوقد في واجهة أحد المحلات كأنها قطعة من أشعة الشمس المذابة و أحس أن روح الشباب الجبلي تتواثب في صدره . . .

ألا يحق له أن يحمل إلى أحبابه هناك شيئا غير الذكريات البشعة السوداء ؟ ! . . .

و فجأة , انتصبت أمام عينيه صورة واحدة من تلك الليالي الرهيبة التي عاشها في الأدغال.

حاول أن يتجاهلها , أن يطردها و أن يهرب منها , إلا أنها كانت لا تتزحزح و هي تقف بينه و بين الفضاء اللامتناهي كما تنسدل الستارة الداكنة السميكة .

تناول سيكارة و أشعلها بقلق ما لبث أن تحول إلى استسلام المنهزم أمام الصور المرعبة المتلاحقة . . .

. . . كان يعود إلى العاصمة (كايان) , خلال الغابات المتشابكة المظلمة وحيدا» بلا سلاح يشد إلى ظهره بعض الأرغفة و صرة من (الكواك) و يتوكأ على عصى قصيرة ثقيلة يزيح بها من أمام وجهه الألياف و الأغصان المتدلية .

و بدأ يحس أن الغابة تزداد ظلاما» , و بأن الليل بدأ يقبل , الليل المخيف الغادر .

كان حمد شجاعا» . إلا أن الخوف لم يعد عيبا» في مثل تلك المجاهل الشديدة الخطر , الغارقة في ظلام رطب مفزع .

راح ينبطح بين الحين و الحين , و يحدق في الظلام الدامس يستوثق من سيره , و يتوجس حذرا» من كل حركة أو حفيف . . .

و بغتة هبت عن شماله نسمة باردة , شعر معها حمد بأنها قادمة عبر فجوة في الغابة . . . لعلها طريق . . .

انحرف في حذر ثم انبطح من جديد يتفحص المكان بعينيه و أذنيه و مشاعره , و يتحسسه بيده .

كانت بعض الأضواء الخافتة تختلس طريقها من السماء إلى الفجوات الضيقة , و خيل إليه أنه يلمح على ضوئها بريقا» معدنيا» . . . تقدم يحبو و مد يده و هو شديد القلق . . .

كان البريق بريق نصل لخنجر طويل , قد يكون حربة عسكرية أو بقية سيف , و قد تمددت إلى جانبه فأس يبدو أنها جديدة و ثقيلة .

رفعها في الهواء ثم رماها ,فهو متعب لا يستطيع أن يثقل كهله بحملها , أما النصل , فقد كان هدية من السماء , أحس معها بأنه استعاد رجولته و شجاعته , و بأن الغابة لم تعد مظلمة رهيبة مفزعة إلى هذا الحد . . .

تقدم و هو يهز سلاحه بين الحين و الحين في حركة تشجيع مصطنع . . .

و لاحت على بعد أمتار منه قطعة سوداء عرف بالخبرة أنها كوخ خشبي من أكواخ الحطابين .

أحس بشيء من الطمأنينة و راح صوته يدوي في الغابة في محاولة لإيقاظ صاحب الكوخ , إلا أن نداءاته المتكررة المرتجفة ظلت بلا جواب . و مع ذلك فقد قرر أن يقضي بقية ليلته في ذلك الكوخ المهجور , و قد أحس فجأة بأنه متعب مرهق . . .

تقدم , إلا أنه ما لبث أن تعثر بقطعة قماش , رفعها و راح يتحسسها . . .

كانت قطعة بنطلون ممزقة و إن لم تكن بالية . . .

لم يكترث لها بل تركها تنساب من بين أنامله المرتجفة بلا اهتمام , و في اللحظة التي كان يهم فيها بأن يدخل الكوخ أحس بأنه يدوس شيئا» رطبا» , فقفز إلى الوراء مذعورا» , و هو يضرب بنصله في الهواء ضربات مجنونة و يصرخ صرخات مدوية مرتجفة . . . إلا أن شيئا» ما لم يتحرك , لم يختلج , و رويدا» رويدا» استطاع حمد أن يتمالك نفسه ثم ينحني باهتمام ليرفع بيساره قطعة من قدم إنسان . . .

راح يربط بسرعة بين الفأس و قطعة البنطلون و بقية القدم فأدرك و هو يرتجف أن هناك ضحية . . .

ها هو الآن يواجه الخطر الواضح في قلب الأدغال الغادرة , و في ساعة متأخرة من ليل رهيب مظلم .

هل يلجأ إلى الكوخ ؟ لا إن الكوخ لم يستطع أن يحمي . . . و هذه هي بقايا صاحبه . . . فليبتعد إذن . . . إنه الحل الأفضل .

استدار و هو يتصبب عرقا» باردا» , و راح يتلمس طريق العودة و هو يصرخ و يلوح بنصله في الهواء ليهرب العدو المجهول بقدر ما كان يحاول أن يبعث في نفسه الشجاعة و الثقة , و من ثم فقد انطلق يغني بصوت أراده عاليا» صافيا» إلا أنه بدا رغم كل جهده مترجرجا» يعلو و ينخفض بلا اتزان .

كان يجر ساقيه جرا» عندما بدأ يقترب من النهر , و راح يصرخ بلغة الأهالي الزنوج , فهو يعرف بالخبرة أن هناك قاربا» لنقل المسافرين من ضفة إلى ضفة , في مناطق التجول الرئيسية . .

تحرك حمد في (الشيزلونغ) و قد جف حلقه و بدأت تدب في جسده الناحل قشعريرة خفيفة

كان هدير الباخرة يقطع سكون الليل بنغمة رتيبة خافتة . و الأضواء القليلة الساهرة تتراقص في أجواء المقاصير و الممرات , و في السماء الشديدة الصفاء كانت النجوم أشد اقترابا» و أشد لمعانا» . . .

حاول أن ينسى , أن يبتعد عن ذكريات تلك الليلة الرهيبة , و هو يحدق في الفضاء الواسع المتلألئ البليل , إلا أنه لم يستطع أن يشيح بوجهه عن صورة ذلك الزنجي العاري و هو يقترب منه في قارب مجوف من جذع شجرة , و في عينيه بريق حذر و استغراب , لينقله إلى الضفة الأخرى واجما» بادي الانزعاج . . .

و لم يستطع أن ينسى كيف أمضى بقية تلك الليلة في مصنع للخشب مهجور متهدم واسع الأرجاء كأنه قلعة قديمة خربة . . .

كان خائفا» , مرهقا» , مرتجفا» , أشعل النار و استلقى على طاولة ضخمة سميكة و هو يحاول أن يغمض عينيه , إلا أنه سرعان ما أفزعه دوي هادر مفاجئ ينبعث من شقوق الجدران و راح يحوم في الفضاء . . .

انكفأ على وجهه و سمر جسده المرتجف المرهق فوق الطاولة , و هو يغطي أذنيه بيديه . .

إنها أعشاش زنابير هيجها الدخان و اللهيب . . . و كانت الطريقة الوحيدة لاتقاء خطرها الداهم , أن يتماوت أن يلتصق بالطاولة دون حركة كأنه قطعة منها . . .

إنها المرة الوحيدة التي أحس فيها بالذل . . . و مع ذلك فهو لا يزال يبتسم و هو يروي هذه الحادثة ابتسامة فيها مزيج من المرارة و الدعابة . . .

مسكين حمد , إنه لا يزال إلى اليوم يعيش في ذكريات المنافي و الأدغال .

كان يحلم و هو على ظهر الباخرة بأنه ينطلق نحو الحرية , نحو السعادة نحو الطمأنينة . .

رفاقه القدامى نسوه و أهملوه . . . سيفرحون به و سيغمرونه بفيض من الأشواق و الحنين و الصغار الذين لا يعرفهم سيجلسون إلى جانبه في المضافة يستزيدون من ذكرياته و هو يوزع عليهم بيده فناجين القهوة المرة و أكواب الشاي الداكن . . .

سينسى كل آلامه و كل ذكرياته السوداء في الوطن الضاحك الشديد الاعتزاز . . .

و مع ذلك فإن سحبا» صغيرة من الهم العابر ستمر به , إنه سيظل يذكر بأنه لم يعد شابا» معتدا» بفتوته , بقلبه و ذراعه , و بأنه يحمل في حناياه و في أجزاء متفرقة من جسده آثار المنافي و التشريد و العذاب و المستشفيات , و بأنه قد ترك هناك , خلف الغابات الشرسة الغادرة رفاقا» له , بعضهم غيبته المجاهل إلى الأبد أو إلى حين و بعضهم الآخر لا يزال يتأرجح في أجواء المعتقلات الرهيبة و الغابات المتشابكة بين الرجاء و اليأس .

لن يسأله أحد غدا عن رفاقه من العرب المغاربة , لا أحد هناك يعرفه و إن كان الناس في بلده يحسون بالإشفاق نحوه , إلا أن أقرباء يونس و أصدقائه سيقيمون مناحة عندما يعود حمد وحيدا» إلى السويداء بعد أن شاهد بعينيه نهاية أخيه في السلاح , و سيبكي كثيرا» أقرباء حسين العاقل و هم يرتقبون عودته يوما ما شيخا» متهدما» غريب الزي و اللسان مثل حمد . . . أو لا يعود . . .

الفصل الرابع عشر

كانوا ستة يقفون وسط الزحام الهائل على رصيف الميناء في مرسيليا , يرطنون بالفرنسية الركيكة حينا» و يتابعون نقاشهم بالعربية المتعبة المرقعة أحيانا كثيرة .

و كان أحد الستة أكثرهم انفعالا في حركات يديه و عينيه و أكثرهم مشقة في متابعة الحديث و في التعبير عن أفكاره , إلا أن الخمسة الآخرين استطاعوا أن

يفهموا منه بأنه أرمني الأصل عائد مثلهم من منافي الغويان , إلا أنه لا يرغب في العودة إلى سورية بل إنه يفضل البقاء في فرنسا . .

و ماذا ينتظره في سورية ؟ . . .

لقد قتل أبوه في المذابح التركية الأرمنية . و ماتت أمه في حلب و هي تنتظر عودة ولدها الوحيد بلا جدوى .

و هكذا بدأ (ارتين) يحس بأن ارتباطه بالشرق يتلاشى , فلا وطن . . . و لا أهل . . . و لا أمل . . .

و كان عناق طويل اختفى على إثره ارتين بين الزحام و هو يلوح بيديه في حركة جناحي طائر ينطلق . . .

و عاد الرجال الأغراب الخمسة إلى التشاور و التساؤل : حسين محفوظ و رشيد العلي من شمال سورية و محمد عيد عبد الكريم من بعلبك و أحمد فلاح من درعا و حمد عباس دياب من السويداء .

كلهم منفيون قدامى , انقطعوا عن العالم و الحضارة سنوات طويلة و ها هم الآن يجابهون مدينة مرسيليا الضخمة بتعقيداتها و زحامها و سرعة حركتها و ضجتها و ألغازها .

كان حسين أقدرهم على الحركة في مثل هذا الجو الغريب و هذا الحشد البشري المتلاطم, فليكن هو القائد و المرشد . . .

و كان همهم الأول أن يأكلوا . . . أن يشبعوا , إنهم لم يكونوا جياعا» إلا أنهم جميعا» شعروا بالنهم . . . برغبة في مطاردة البائعين المتجولين بعيون جائعة كعيون الذئاب .

تقدموا من سيدة سمينة بيضاء , كقطعة من الثلج يتلاعب النسيم بشعرها القصير الأشيب , و هي تتجول بشيء من الخفة خلف صناديق الخضار و الفاكهة . و هي تنادي بصوتها الدافئ . . .

- بونجور مدام .

- بونجور مسيو .

و ابتسمت ابتسامتها التقليدية المرحة .

. . . الله كم كان التحدي مرهقا» جائرا» . . .

سيدة تبتسم . . . و خضار و فاكهة لا تقل إغراء و فتنة . . . و توزعت النظرات المشدوهة التي كانت تبدو بلهاء بين الوجه الطلق و صناديق الفاكهة الزاهية . . .

و تقدم حسين من صندوق العنب الذهبي و أشار بيده و تمتم كلمات لم تفهمها البائعة و لم يكن حسين نفسه يفهمها . . .

لقد فتش طويلا» في ذاكرته عن الاسم الفرنسي لهذه الفاكهة و أجهد ذهنه و لكن دون جدوى.

- دي ريزان .

وي مدام . . . وي مدام . . . أن كيلو . . .

و رفع أصبعه في الهواء , و هو ينقل نظراته المعجبة بل الوالهة بين الصناديق المتعددة الألوان و الحجوم .

آه ما كان أسعده لو استطاع أن يلتهمها جميعا» . . . جميعا» دفعة واحدة . . .

و قفزت إلى ذاكرته صورة مطعمه الشديد التواضع في (كايان) و ابتسم ابتسامة إشفاق , و هو يلقي على رفاقه نظرة فاحصة فإذا بهم في مثل ذهوله و ارتباكه و في عينيهم ما في عينيه من نهم

و استفاقوا من سكرتهم على صوت السيدة الهادئ - سواسانت فران . . مسيو . . . ستون فرنكا» . . . أجرة عامل ليوم ونصف في الغويان . . . أوف . . .

و انطلقوا يلتهمون العناقيد في استخفاف واضح بالنظرات الغريبة المستهجنة التي كان يلقيها عليهم المارة , و قد تأبط أحد الرفاق الخمسة رزمة كبيرة من البصل الأخضر .

و انطلقوا في اتجاه الفرن القريب حيث تفوح رائحة الخبز الطازج الشهي .

رفع حسين أصابعه يطلب كيلوين من الخبز الطازج و هو يبتسم لصاحب الفرن .

و دهش الرفاق و هم يرون الفران يهز رأسه و لا يتحرك .

و كرر حسين الإشارة و الطلب و هو يحسب أن الرجل كان في غفلة عنه .

غير أن الفران استطاع أن يكتشف من أشكالهم ومن تصرفاتهم و من لهجتهم أنهم غرباء , انهم قادمون جدد . . . و من ثم استطاع أن يفهمهم بشيء من الصعوبة و بكثير من اللباقة أن الخبز يباع بالتقنين , و أن عليهم أن يحصلوا من المخفر على بطاقات تموين .

و أرشدهم صبي الفران إلى الدائرة المختصة , و التفت حولهم بعض الموظفين بكثير من الفضول بعد أن ترددت في أجواء الغرفة كلمات : لاغويان . . . سيري . . . داماس . . . و مع ذلك و بالرغم من كل التفصيلات التي أمكن للرفاق الخمسة أن يقدموها للمسؤول , فإنه ظل يهز رأسه و هو يحاول إقناعهم بأن الخبز متوفر في جميع مطاعم المدينة و بأن لا موجب للحصول على بطاقة تموينية.

و اشتد الجدل , فالغرباء الخمسة لا يستطيعون أن يتحملوا أسعار المطاعم و هم يفضلون أن يأكلوا في الهواء الطلق أو في الغرفة التي سينزلون فيها حتى لا يضطروا إلى الاستجداء بانتظار استئناف رحلتهم نحو الشرق .

و لاحت في العيون الفضولية نظرات الاستغراب لتلك الرزمة من البصل الأخضر يتأبطها الغريب الحليق الأشيب و تجاهل الرجل النظرات المسمرة على رزمته و هو المحروم منذ عشرين عاما» من هذه الخضار الشهية .

و التفت بشيء من التهديد و الحزم و هو يؤكد بلغته الهجين و بحركات شديدة التعبير من يده الحرة بأنه مستعد لخطف الخبز خطفا» إن هو لم يحصل مع رفاقه على البطاقة .

و شعر المسؤول بالإحراج فتناول بيد مرتجفة بضع بطاقات ثم قدمها و هو يحس بأنها تنتزع منه انتزاعا» .

و اهتدى الرفاق إلى غرفة متواضعة حشروا تحت أسرتها أشياءهم القليلة و جلسوا يهرشون بمرح الأطفال و سذاجتهم رزمة البصل الأخضر و الأرغفة الشهية الساخنة .

و كان المساء يقترب و هاهم جميعا»يشعرون بأن المدينة الصاخبة و الأضواء الباهرة المتعددة الألوان تدعوهم بل تحاول اقتلاعهم من الشرفة الضيقة .

و أحسوا جميعا بجوع أشد ضراوة لم يستطع التفتيش عن الرغيف طوال اليوم أن يخمده بقدر ما استطاع أن يحجبه من حين إلى حين , أما الآن و قد امتلأت بطونهم , فقد أحسوا بأن ذلك الجوع الآخر المفاجئ يستبد بهم و يصرخ في أجسادهم .

إنهم رجال . . . بشر حرموا من النساء . . . من حديثهن . . . من بسماتهن . . . حتى من منظرهن السنين الطوال . . . و هذه هي مرسيليا المدينة الضخمة الصاخبة تخطر فيها و ترفرف كالفراشات الملونة الهائمة جنيات من البشر بشعور من أشعة الشمس و عيون بلون البحر و أجساد كالحرير . . . كالمرمر . . .

كان حمد يقف أمام واجهة الفران يستعرض الخبز و الكعك و البسكويت الشهي في انتظار خروج رفاقه , عندما دفعته صبية بكتفها العارية البضة و هي تسير على عجل كأنها تطير إلى موعد

- باردون مسيو .

و اتبعتها بابتسامة خاطفة و لفتة غزال ما لبث أن غاب بين الزحام المتماوج .

و شعر حمد بتيار يسري في عروق كان يحسبها جافة , و باضطراب في حنايا صدر ظنه تحطم إلى الأبد . . .

و عندما خرج الرفاق لم يثر منظره المرتبك كثيرا» من اهتمامهم , فقد كانت البرداء لا تفارقه إلا لماما» و من ثم فإن فرحهم بالأرغفة الطازجة البيضاء الساخنة اللامعة كان يطغي على مشاعرهم بتلك اللحظة .

بقي حمد وحده في الشرفة يغب من الأنوار و الألوان و الحياة المتدفقة أمام عينيه غبا في استسلام هادئ تأملي صامت , في حين تسلل الرفاق إلى الحياة نفسها يعبون منها دون ارتواء حتى الصباح .

و في اليوم الثاني كانوا يهيمون على وجوههم في أنحاء المدينة الهائلة . . زحام . . . سيارات . . . أبنية . . . قطارات . . . حافلات . . . مخازن . . . مصانع . . .

آه كم هي معقدة هذه المدينة . . . كم هي مخيفة و مع ذلك كم هي جميلة مغرية نابضة بالحياة . . .

و قادتهم أقدامهم من جديد نحو الميناء , إنه مدينة ثانية متحركة أشد حيوية و تعقيدا , و إن تكن أقل رونقا» و إغراء .

و في الميناء كانت الوجوه و اللهجات و الأزياء واضحة التباين , كأنها هي معرض اممي. حتى المقاهي و المطاعم المنتشرة على الشاطئ كانت واضحة التنوع في واجهاتها و زبائنها و إن تكن في أغلبيتها عمالية شعبية .

و استطاع حسين من خبرته السابقة في رواد المطاعم أن يكتشف أحد المطاعم المغربية في زاوية من زوايا الميناء الهائل الاتساع و على أبواب المطعم الزجاجية بدأ الجدل و التشاور للدخول أو العودة إلى البيت , نعم البيت , بالنسبة لهم على الأقل .

و استطاعت فكرة حسين في الدخول أن تنتصر , أليس هو المرشد و القائد ؟ . . .

جلس الخمسة حول طاولة صغيرة منخفضة ضخمة القوائم و طلبوا الشاي ..

فرنك تاي . . . فرنك سكر . . .

و في انتظار الشاي , كانت عيونهم تتجول في القاعة الواسعة العالية المتعددة الأعمدة و المزينة بزخارف مغربية ساذجة و كأنهم يفتشون عن وجه يعرفونه أو صديق يرتقبون وصوله المفاجئ من المجهول .

كان الرجال القلائل يلعبون ورق في صمت و هدوء لا يقاطعه غير صوت ارتشافهم لكؤوس الشاي , و ما عتم المقهى أن بدأ يغص بالزبائن و بدأ جوه الهادئ الحالم ينقلب إلى جو من الفوضى و الصخب و الدخان المتصاعد و النداءات المتكررة .

و تقدم الجرسون , شاب أسمر نحيل , يبدو أن يده اليسرى كانت عاجزة عن الحركة , و أخذ يوزع الأقداح السمراء في حركة آلية دون أي كلمة أو بسمة . . .

- اسمع يا أحمد , نحن من بلاد الشام , كنا في المنفى في الغويان وراء البحر الكبير , و نريد العودة إلى بلادنا , نحن غرباء هنا , نرجوك إرشادنا إلى أي شخص يستطيع أن يساعدنا على إنهاء معاملاتنا .

هز أحمد رأسه ثم انحنى انحناءة أتبعها بشبه بسمة و انطلق نحو زاوية نائية من زوايا المقهى حيث وقف في شبه استعداد يحدث رجلا» أشيب , في جبينه أثر جرح قديم كان يطالع جريدة فرنسية بكثير من الاهتمام و القلق .

طوى الرجل الجريدة و تأبطها ثم تقدم بكثير من الهدوء و التجهم صوب الغرباء الخمسة و شعت ابتسامة مجاملة في وجهه النحاسي و تمتم مرحبا» و هو يتناول بنفسه كرسيا» من طاولة مجاورة.

- أهلا . . . أنتم من بلاد الشام . . . من بلاد سيدي عبد القادر مرحبا» بكم . . .

و دار حديث طويل حول الطاولة المنخفضة ذات القوائم الضخمة , و ضرب موعد في الغد في نفس المكان و الزمان .

و عندما وقف حسين يمد يده إلى جيبه ليدفع الحساب كان المغربي الأشيب يرفع حاجبيه و هو يتطلع خلسة إلى عامل المقهى الذي انصرف فورا» إلى ركن آخر يجمع الأكواب الفارغة .

و في اليوم الثاني جلس الغرباء الخمسة في الركن ذاته و ما لبث أن تقدم منهم الرجل الأشيب يتبعه شاب في مقتبل العمر , على شيء من الأناقة .

و استؤنف حديث الأمس , ثم خاطب الرجل الأشيب رفيقه الفتى بلهجة فرنسية طليقة لم يستطع الرفاق الخمسة أن يفهموا منها إلا بضع كلمات و مقاطع أدرك منها بعضهم أن الرجل يوصي بهم و يعهد إلى الشاب بإرشادهم و تأمين مصروفهم .

و عندما هم الرفاق بالانصراف كان الشاب المغربي الأنيق يرفع حاجبيه في وجه عامل المقهى مشيرا» إلى أنه هو مسؤول عن الحساب .

إلا أن الشاب لم يسمح لهم بالانصراف و طلب منهم بل رجاهم أن يرافقوه إلى المطعم القريب , و عندما كان الرجال الستة يقتربون من الباب و هم يهمون بالخروج كان نداء يتردد عاليا» في المقهى الذي توقفت فيه الحركة و ساد صمت مفاجئ :

- يا أولاد . . . بالصلاة على النبي . . . عندكم ضيوف من بلاد الشام .

و تقدم الرجل الأشيب يحمل بيديه صينية راحت تتساقط فوقها قطعات من العملة في رنين متفاوت النغم أو تتناثر فوقها الأوراق النقدية المختلفة الحجوم . . .

و عندما كان الرجال يتجاوزون عتبة المقهى كان النداء لا يزال يتردد . . .

- يا أولاد . . . بالصلاة على النبي . . . عندكم ضيوف من بلاد الشام من المجاهدين . . .

و في المطعم أنبأ الفتى الجزائري ضيوفه بأن هذا المطعم مفتوح لهم ليلا» نهارا» على حساب الجالية العربية المغربية في مرسيليا .

أحس الرفاق الخمسة بالإحراج و كانوا في كثير من الأحيان يتهربون من تلك الضيافة و من تلك المساعدات المادية التي كانت تجمع و تقدم لهم , إلا أن الشاب كان يجهد في إقناعهم بأن تلك الضيافة إنما هي واجب و ليست صدقة أو منة , و من ثم كان في الغالب يقتحم عليهم الغرفة ليوصلهم إلى المطعم أو المقهى .

و ذات يـوم قـدم إليهـم الشـاب خمـس بطاقـات سـفر مـن مرسـيليا إلى باريـس بالقطـار مـع كتـاب توصيـة و بطاقـة بعنـوان أحـد الأصدقـاء العـرب المغاربـة في باريـس . و مـن ثـم بـدأ يـشرح كيفيـة الوصـول إلى القطـار و كيفيـة مغـادرة المحطـة و الحصـول عـلى التاكـسي .

و في الثامنـة مسـاء كانـوا يسـتقلون القطـار مـن مرسـيليا إلى باريـس , و سرعـان مـا اسـتغرقوا في النـوم و هـم يسـتعرضون ذكريـات القطـارات الرهيبـة في الأمـس البعيـد البعيـد . . .

و في الصبـاح كانـت الشـمس تـشرق عـلى لوحـة متحركـة رائعـة . . . أنهـار متدفقـة . . . و خـضرة متلاحقـة . و قـرى و مـزارع و مـدن عـلى غايـة مـن الجـمال و الـذوق و البهجـة . . .

أف . . . كيـف يسـتطيع هـؤلاء النـاس أن ينعمـوا بـكل هـذا الجـمال و الخـير و السـعادة و هـم يزجـون بالألـوف مـن أبنـاء الإنسـان في منـافي الغويـان و سـجونها و مجاهلهـا و يسـخرونهم في أعـمال الثـيران ؟ . . . كيـف يمكـن لهـؤلاء النـاس الدائمـي المـرح و الابتسـام المرهفـي الإحسـاس , الوديعـين , الودوديـن أن يكونـوا أخـوة و أبنـاء لأولئـك الجلاديـن الأجـلاف في المسـتعمرات و في بلـدان الانتـداب ؟

تسـاؤلات هيمنـت عـلى أذهـان الغربـاء الخمسـة الذيـن يسـتقلون القطـار السريـع لأول مـرة في العمـر . و الذيـن ظلـوا يربطـون هـذه المناظـر الرائعـة الجـمال , النابضـة بأغنـى مـا في الحيـاة مـن بهجـة و أنـس بذكريـات المنـافي الممعنـة في القسـوة و الظلـم .

كابـوس ثقيـل حاولـوا أن يتخلصـوا منـه مـرة واحـدة , أن يخففـوه , أن يحجبـوه و لكنـه كان يتشـبث، يلتصـق بهـم بعروقهـم و جلودهـم , إنهـم برغـم كل مشـاعر الانتصـار الوطنـي و نشـوة الاسـتقلال و الحريـة لا يزالـون حتـى الآن يخافـون مـن أن تكـون حلـما» جديـدا» واهـما» مـن الأحـلام الكثـيرة التـي عاشـوها طـوال سـنوات المنفـى و الأشـغال الشـاقة المرهقـة .

و عنـد الظهـيرة كان مراقـب التذاكـر في القطـار يرشـدهم بـشيء مـن البشاشـة إلى المحطـة التي سـينزلونها .

و مـا أن هـدأت حركـة العجـلات و انقطعـت الصافـرة عـن نداءاتهـا , و فتحـت الأبـواب حتـى كان الرفـاق الخمسـة يشـقون طريقهـم بكثـير مـن الارتبـاك و القلـق و هـم يحاولـون باسـتمرار أن يظـل بعضهـم قريبـا» بـل ملتصقـا» بالبعـض الآخـر خشـية الضيـاع بـين هـذه الأمـواج البشريـة و المتاهـات الشاسـعة مـن الردهـات و المداخـل و الأروقـة و الأبـواب .

و عندمـا كانـت تنقلهـم التاكـسي عـبر المدينـة الأسـطورية الهائلـة , كانـت أعصابهـم قـد بـدأت تهـدأ و اضطرابهـم يتـلاشى تـلاشي الضبـاب الشـفاف في ذلـك الصبـاح البهيـج .

يا فرانسا والله ما نطيع باريز مربط خيلنا . . .

لي ديرة ماله مثيل باريز ما تعادل لها . . .

أهازيـج شـعبية كانـت تـتردد أصداؤهـا الحماسـية في شـعاب الجبـال المضطرمـة و الأحيـاء الدائمـة الغليـان و هـا هـي تقفـز إلى الذاكـرة كـما يقفـز الجنـي مـن القمقـم المسـحور .

مـا أشـد اعتـدادا أولئـك النـاس و هـم يجعلـون منهـا في أهازيجهـم مربطـا» لخيولهـم . . مـا أعظـم تمسـكهم بـتراب الوطـن و اعتزازهـم بـه و هـم يفضلونـه عـلى عاصمـة الدنيـا . . .

آه . . . كيـف أمكـن لأبنـاء بلادهـم أن يتمـردوا عـلى طاعـة هـذه العاصمـة الهائلـة الجبـارة ! ؟

كيف أمكن لهم أن يرغموها على التسليم ؟

لا شك أن الثمن كان دماء و دموعا و شقاء و كفاحا» عنيدا» بطوليا» .

كان السـائق يسـير بـشيء مـن السرعـة و في صمـت مطبـق و كان الرفـاق الخمسـة يسـبحون بأنظارهـم و أفكارهـم في هـذا العـالم السـحري شـديد الغرابـة لا يتكلمـون و لا يبتسـمون و لا يتململـون كأنهـم تماثيـل تنقلهـم السـيارة إلى بعـض متاحـف المدينـة .

توقـف السـائق في منعطـف بـدا ضيقـا» نسـبيا» و أشـار إلى الرجـال أن يتبعـوه إلى مدخـل بنـاء باهـت قديـم كأكـثر أبنيـة المدينـة , ثـم رفـع أصبعـه في اتجـاه قنطـرة مـن الطـراز المغـربي ترتفـع فـوق مدخـل خشـبي ضيـق , و اسـتدار ينحنـي مودعـا» باسـما» .

كانـت اللافتـة الكبـيرة (بـار عمـروش) بـارزة واضحـة فـوق بـاب المدخـل و كانـوا قـد تعرفـوا في مرسـيليا إلى مـا تعنيـه كباريـه , و مـع ذلـك فقـد تـرددوا في أن يدخلـوا بـلا اسـتئذان فليقرعـوا البـاب إذن .

و فتـح البـاب شـاب أنيـق بقميـص بيضـاء و ربطـة عنـق بشـكل فراشـة سـوداء و هـو يفتـح عينـين مشـدوهتين كأنـه يسـتغرب أن يقـرع إنسـان بـاب ملهـى . . .

و رفـع حسـين في وجهـه بعـد تحيـة قصـيرة , رسـالة التوصيـة , و عندمـا قـرأ الفتـى العنـوان ابتسـم ابتسـامة عريضـة مشـجعة و انحنـى باحـترام و هـو يدعوهـم إلى الدخـول .

و تقـدم حسـين بـشيء مـن الوقـار يقـدم الرسـالة إلى السـيد الشـديد السـمرة الـذي يـكاد يبـدو زنجيـا» لـولا مبسـمه الرقيـق و شـعره الناعـم الشـديد اللمعان .

كان الملهـى خاليـا» إلا مـن بعـض العـمال القلائـل الذيـن كانـوا منهمكـين في تنظيـف المقاعـد و ترتيبهـا و إعـادة الأقـداح البلوريـة المشعشـعة إلى الواجهـات الزجاجيـة .

و التفـت الرجـل أول مـا التفـت إلى التوقيـع في أسـفل الرسـالة , و إذا بـه يتوقـف فجـأة عـن متابعـة القـراءة و يدعوهـم إلى غرفـة جانبيـة كانـت تقـوم بترتيبهـا سـيدة يبـدو أنهـا أوروبيـة , ظلـت تتابـع عملهـا بعـد أن تبادلـت مـع الرجـل الأسـمر بسـمة ضاحكـة .

و دعاهـم الرجـل إلى الجلـوس فـوق مقعـد طويـل منخفـض تزينـه سـجادة مخمليـة ثـم انهمـك في متابعـة القـراءة و هـو يطلـق عبـارة ترحيـب مقتضبـة خاطفـة بـين الحـين و الحـين .

و شعر حمد بارتجاف ظنه عابرا», فشبك يديه فوق صدره بعصبية و شد ركبتيه في حركة مقاومة خفية , إلا أنه سرعان ما بدأت ساقاه ترتجفان ارتجافا» ظاهرا» اضطر معه إلى أن يعتمد بيديه كلتيهما على حافة المقعد الذي بدأ يهتز بدوره اهتزازا» خفيفا» متواصلا» , و عندما رفع الرجل عينيه عن الرسالة هاله أن يجد وجه واحد من جلسائه في صفرة الأموات و هو يتقلص تقلصا» مخيفا» في حين كان المقعد بادي الارتجاف و قد أخذ الرجال الأربعة ينظرون بقلق واضح إلى رفيقهم الذي كان ينتفض و كأنه ورقة كبيرة من أوراق خريف عاصف .

و أسرعت السيدة تحمل معطفا» تلقيه على كتفي حمد ثم تتناول من غرفة مجاورة كيسا» من الماء الساخن و قدحا» صغيرا» من الكونياك .

و استطاع حمد أن يتحامل على نفسه و أن يعتذر عما حدث في حين راح الرجل يخفف عنه بالتشجيع و الابتسامة المشفقة , ثم تناول من على المكتب القريب بطاقة خط على ظهرها بضعة أسطر و سلمها إليهم و هو يصافحهم بحرارة :

- أنتم هنا في باريس على حسابنا , أهلا بكم . . .

و هذا عنوان الفندق . . . أرجو أن تنتظروا هناك الساعة التاسعة صباحا» لتوصلكم السيارة إلى القنصلية اللبنانية إذ ليس لسورية حتى الآن قنصل .

و عندما وقفوا يستأذنون للانصراف شيعهم الرجل حتى الباب الخارجي و هو يوصي سائق سيارته بإيصالهم إلى الفندق .

و في اليوم التالي كانوا يدخلون باحة بناء فخم مسور تحيط به حديقة لطيفة يرفرف فوقها علم تتوسطه شجرة خضراء عرفوا فيما بعد أنها الأرزة .

كانت مقابلة القنصل مقابلة على غاية من اللطف و البشاشة , فقد ترك الرجل مكتبه و جلس بينهم باسما» مرحبا» , و أمر لهم بالقهوة و بدأ يستمع إلى حديثهم بكثير من الاهتمام , ثم رجاهم أن يعودوا إلى القنصلية لمتابعة إنجاز معاملاتهم .

و في الجلسة الثانية طلب القنصل أسماء المنفيين و السجناء من أبناء المشرق العربي الأموات منهم و الأحياء .

و في المرة الثالثة كانت معاملاتهم قد أنجزت و كان القنصل يرجوهم أن يقبلوا سبعة آلاف فرنك كمساعدة تمكنهم من الوصول إلى الوطن و أن يقبلوا أيضا» أجرة الباخرة .

و لا يزال الناس القلائل الذين يزورون حمد يستمعون إلى حديثه الشيق الأغرب من الخيال يشعرون بمدى ما يكنه من عرفان الجميل و الاعتزاز بأولئك الأصدقاء الشرفاء , في مرسيليا و باريس.

و لم ينتظر الرفاق الخمسة موعد الباخرة التي ارتبطوا بها بعد أن أنجزت معاملاتهم فاستقلوا أول باخرة تمكنوا من حجز أمكنة فيها نحو الشرق .

و في اليوم التالي كان أحد مرافقي فيصل الثاني ملك العراق يحدث جلالته بما ترامى إليه من أن بين الركاب بعض المنفيين السوريين يروون لرفاقهم المسافرين عجائب و غرائب أسفارهم و سجونهم و منافيهم و مجاهل بلاد الغويان القادمين منها .

و التفت الفتى الأسمر نحو المرافق ثم تمتم :

- زين يا باشا : استدعهم و خلهم يسلونا ! . . .

الفصل الخامس عشر

شبح متجمع هزيل كان يستند بيديه الضامرتين إلى حاجز المركب يمضغ بين بقايا أسنانه لفافة تبغ و يمسح بين الحين و الحين براحته خده الناتئ أو يمر بأصابعه على شاربيه الأشعثين و هو يغالب نسيم الصباح القارس .

كان يرقب الفجر في هدوء عنيد , الفجر الذي لاحت تباشيره في الأفق البعيد . . .

فالسماء لم تعد قاتمة و إن بدت حواشيها غبراء باهتة تتسع بكل بطء و تدفع أمامها رداء الليل الأشيب , و تحيط الغيوم الخفيفة المتناثرة بهالة من ضياء خجول .

كان وحيدا» , فالناس في غفوة أو ركود و البحارة لم يحاول واحد منهم أن يقترب منه , فقد أحسوا أنهم أمام راهب مستغرق في صلاة و اكتفى بعضهم بأن يلقي عليه من بعيد نظرة احترام و تأمل.

و بدأت دقات قلبه تضطرب و أحس برجفة تهزه بين الحين و الحين , و أخذت تهوّم في خاطره و أمام ناظريه صور مهزوزة مشوشة تختلط فيها نتف من الذكريات البعيدة و القريبة , و أطياف غامضة من الغد المشرق .

و مع ذلك فقد كان شعور من السعادة هادئ عميق يهيمن عليه و يبعث في نفسه مع الفجر الباسم فجرا» من الرجاء و مع انتصار النور نشوة من حلاوة العودة و اللقاء . . .

و يبدو الأفق الآن أشد وضوحا» فالجبال العالية تلتمع فيها بقايا ثلوج و اللون الداكن بدأ يميل إلى الخضرة و الخط المتعرج الهائم المتلاشي يزداد دقة و تفصيلا» في بعض أجزائه .

و الظلال التي كانت تغلف السفوح لم تعد كلها كثيفة قاتمة , في حين أخذت تبتسم من خلال الفجوات الضبابية شفاه القرميد الأحمر و باقات القرى الملونة المتناثرة .

و مع أن نظراته كانت مسمرة على هذه اللوحة الحبيبة الجميلة الرائعة إلا أن أفكاره كانت تحوم خلفها فوق لوحة بعيدة تلتفع بمنديل سميك أبيض تشع من خلاله أشواق أم .

ومع الصبح بدأت الباخرة تموج بالمسافرين في شبه فوضى , و أحس حمد بأنه يقتلع نفسه من حاجز الباخرة ليعود إلى أشيائه القليلة يهتم بترتيبها و حزمها , و ليتحسس عصا الأبنوس القصيرة التي حملها من هناك تذكارا» ماديا» وحيدا» .

وحيدا» . . . لا . . . عفوا» . . .

فقد كانت الضلوع المهشمة , و الساق الكسيرة و الشيب و الوجه المغضن الشديد الشحوب و السعال الجاف المتقطع . . .

كلها كانت أيضا» تذكارات مادية لربع قرن من الرق و الإرهاق و العراك الرهيب الصامت الطويل بين إغراءات الموت الحلوة و انتفاضات الحياة المريرة .

و انطلقت صفارات الباخرة و بدأت عمليات التفتيش , و الجوازات ساعات أحس فيها حمد بأن كابوسا» هائلا يجثم على صدره المهشم , و بأن الزمن يحاول أن يفجعه بأعز ما ظل يعيش من أجله و يتمناه طوال عشرين عاما» , بأن يلثم تراب أجداده قبل أن ينتصر عليه الموت .

و عندما بدأت القوارب الصغيرة تحمل المسافرين إلى رصيف الميناء لم يلتفت إلا قليلون منهم إلى شيخ شاحب هزيل يضرب براحة كفه الأرض و يرفعها إلى شفتيه ثم إلى جبينه و قد طفرت من عينيه الدموع متغلغلة في ثنايا شاربيه , أما هو فقد ألقى نظرة عجلى على حلقات العناق و الترحيب المتماوجة المتدافعة , و سمع دون إصغاء , هتافها و قبلاتها و تمتماتها و مضى يشق طريقه بجهد واضح بين الزحام , لا يعرفه أحد و لا يهتم به أحد و مع ذلك فلم يساوره أي انقباض أو غيرة فقد كان فيض من السعادة يغمر كل حواسه , و نفحة من كبرياء تهب مع كل نبضة من نبضات قلبه .

و انطلقت به سيارة تهدر بحماسة و اعتداد و راحت تطوي بسرعة مذهلة الدروب المصعدة المتعرجة . . .

لم يشعر بأن بيروت قد تغيرت كثيرا» , لولا هذا الازدحام الهائل في شوارعها الضيقة المتقاطعة و ضجة أبواق السيارات المتلاحقة و هدير محركاتها , أما الطريق فقد بدا واضحا» إنه واسع أملس , و أن حركة السير مذهلة و مدهشة في حين بدت القرى أكثر اتساعا» و أجمل منظرا» و أوفر غنى و بهجة . و الأزياء الأوروبية أكثر انتشارا» !. . .

و في هدوء الحالم السعيد راح يستعيد ذكريات الأمس في هذه السفوح الضاحكة الساحرة , فأحس بنشوة لذيذة تسري في عروقه و أغمض عينيه يستزيد

منها و يستوثق , و عندما استيقظ كانت السيارة تتوقف و كان أحد رجال الشرطة يمد يده من نافذة السيارة و هو يتمتم : هويات .

و راح الشرطي ينقل نظره بين حمد و بين الأوراق التي كان يحملها , دون أن ينطق بكلمة واحدة و راح يقلب تلك الأوراق بشيء من الملل , و ما عتم أن دخل المركز ثم عاد بعد فترة يسلمها إلى صاحبها و هو يشير بيده إلى السائق بالانطلاق .

تحركت السيارة قليلا» ثم توقفت ثانية و تقدم عسكري بقبعته الحمراء و شاربيه الأسودين الكثيفين , يطلب من جديد الهويات يتفحصها و يعيدها بشيء من الاهتمام و التجهم الظاهرين .

و عندما كان الشرطي يتفحص الأوراق كانت عينا حمد عالقتين بل مسمرتين في علم صغير بنجوم ثلاث حمراء يرفرف فوق المخفر الحديث , و أحس بأن قلبه يخفق خفوق ذلك العلم . . .

ود لو يقبله . . . ودّ لو يضمه إلى صدره . . . لو يبلله بدموع راهب في محراب و أحس بأنه ينزلق من السيارة و ينتصب في وسط الساحة يؤدي تحية عسكرية خاطفة ثم يعود مسرعا» و هو يكفكف دموعه بكلتا يديه .

و بدا لحمد انه عاجز عن فهم ما قد حدث أثناء غيابه الطويل , و مع ذلك فلم يحاول أن يسأل لماذا أقيم هذا البناء الضخم هنا يسد الطريق بحواجز و سلاسل من حديد تنتصب على جوانبها مخافر متنوعة الحجوم و الأشكال يخرج منها و يدخل جنود بقبعات حمراء أو شبه خضراء أو بخوذ مموهة , و رجال بثياب مدنية يركبون سيارات مسلحة و يحملون تحت معاطفهم مسدسات ضخمة , و هذه الهتافات المنخفضة المتلاحقة : هويات , هويات يا شباب . . . و هذا التفتيش الدقيق حتى الإزعاج أحيانا» . . .

بالأمس عندما مرت قافلة العربات في طريقها إلى بيروت لم يكن شيء من هذا على الإطلاق و كان هذا السهل الضيق على مدخل وادي القرن مبعثا» لنشوة انطلاق و تحرر من رهبة تلك المتاهة الصخرية الرهيبة .

و عندما بدأت الجبال الصخرية ترتفع و تضيق على جانبي الطريق و تسد السماء إلا شريطا» أزرق يتعرج بتعرج الوادي , شعر حمد بأن الطبيعة هنا لم تغير إلا قليلا» من وحشتها غير أن سرعة السيارة و هدير المحركات و تردد أبواقها في المنعطفات الصخرية كل ذلك كان يخفف شيئا» من ملل الرحلة و وجومها .

و في صحراء الديماس انطلقت السيارة تطوي الأرض بهدير كاد يوحي لحمد بأن ينبه السائق إلى هذه السرعة الخطرة , و لكنه لم يفعل ذلك فلعله كان في أعماقه يشتاق مثل هذه السرعة , و هل يستطيع أن ينسى مئات الأغاني التي كان يتمنى فيها أن يكون طيرا» أو أن يحمله جناح طير إلى الوطن .

و عندما أطلت السيارة على الوادي الشديد الخضرة و التعرج , بدأت تخفف من سرعتها , و أخذ هديرها الخافت يمتزج بحفيف أوراق الحور الصفصاف و المشمش .

و تطلع حمد بنهم صارخ إلى الأشجار الخضراء الضخمة المرصعة بالذهب الأصفر , و خيل إليه أنه عاد طفلا» لا يستطيع أن يقاوم أو يخفي ذلك النهم بعد عشرين سنة أو أكثر من الحرمان .

و ما أن توغلت السيارة قليلا في هذا الوادي الأخضر الضيق حيث يخفي الحفيف هدير ضجة المحرك اللاهث , حيث انتشرت في الجو رائحة غريبة أقرب ما تكون إلى رائحة الكبريت , و ارتفعت من خلال فجوات التلال سحب خفيفة من دخان أسود و أبيض , ثم ظهرت فجأة أعمدة عالية , عالية تنفث دخانا» و برزت جوانب من مصنع كبير تعج بالآلات و العمال , و صناديق سوداء صغيرة تتحرك في الهواء ذاهبة آبية . . .

و شعر فجأة بأن الطريق الضيق المحصور بين النهر و الجبل قد اتسع و أن شارعا» واسعا» طويلا» تحف به الأشجار السامقة و البساتين قد انفتح على مآذن و قباب و أبنية مرتفعة متلاصقة في حين انتصبت على يمينه قلاع المزة التي لم تتغير كثيرا» عن عهده بها . . .

هذه هي دمشق . . .

إنه لم يكن يألفها من قبل , كان يحس بأنه شبه غريب عنها , غريب عن عاداتها و تقاليدها و أجوائها , أما الآن فهي تبدو في ناظريه واحة ضخمة تتلاشى على أعتابها كل مخاوفه و كل ظمئه و كل متاعب حياته القاسية .

المدينة تعج بالسيارات و العربات و الدواب و الناس و الدراجات في دوي صاخب و حركة عجيبة و تماوج من ألوان و أزياء و إعلانات . . .

إنه يعرف دمشق , يعرفها جيدا» و لكنه شعر بأنه لا يعرف من دمشق الآن إلا تلالها , و النهر و بعض مآذنها , أما الشوارع و أما الأبنية و أما الساحات فقد أحس بأن لمسة من أساطير الجن قد بدلتها .

و توقفت السيارة و التف حولها صبية صغار يتدافعون و هم يعرضون خدماتهم لنقل أمتعة المسافرين , و عرف حمد من لهجة بعضهم و من شراويلهم الفضفاضة و كوفياتهم الملتفة كالعمائم حول هاماتهم بأنهم من حوران و عرف من لهجة بعضهم الآخر و من عيونهم الشديدة اللمعان بأنهم من الجبل. . .

و فجأة قفز حمد إلى الرصيف الآخر و أطبق ذراعيه في عناق خانق على كوفية بيضاء مصبوغة بالنيل الخفيف مشدودة بعصابة باهتة الألوان .

كان الشاب ذو الكوفية و العصابة المشدودة بادي الارتباك , لم يستطع أن يتبين وجه معانقه و لكنه أسرع يشد بيده على حافظة نقوده فقد برزت في ذهنه فجأة صورة النشالين الذين يتصيدون الأغرار بمثل هذا العناق .

و قليلا» . . . قليلا» تراخت يد حمد و راح يمسح دموعه بإحدى كفيه و هو يشد بيده الثانية على كف صاحبه :

أنا حمد بن عباس ذياب . . . من السويداء . . . يا هلا . . . بريحة الأهل . . .

فتح الشاب الأسمر ذو الشاربين المسترسلين عينيه النجلاوين بدهشة و استغراب , و كأنه لم يفهم شيئا» . . .

و تابع حمد :

-- أين موقف سيارات السويدا ؟ . . .

و أخذ الشاب يشير بيديه في اتجاه معين و هو يحملق في هذا الوجه الشاحب و الشاربين الأشعثين و الشعر الخفيف الأشيب و القامة النحيلة المتهدمة و الثياب الفرنجية القديمة و إن تكن على شيء من النظافة . . .

ثم انصرف بلا استئذان , و كأنه يفلت من مجنون هارب و عاد حمد إلى أشيائه القليلة يحملها تحت أبطه و يشد على عصا الأبنوس السوداء القصيرة و يجر ساقيه في كآبة ظاهرة في الاتجاه الذي أرشده إليه الشاب ذو العصابة الباهتة .

و بدا على حمد الارتباك و التردد و هو يحاول اجتياز الشوارع . . . كان كثير التلفت يسرع أحيانا» و يتباطأ أحيانا» أخرى بلا سبب سوى ما يوحيه إليه خياله أو مبادهته , و شعر غير مرّة بأن بعض السواقين كانوا يتحاشون صدمه بشيء من الإشفاق و إن بعضهم كان يشتم و هو يلوح بيده مهددا» .

و عندما وصل باحة صغيرة مهملة يقف فيها باص كبير يلتف حوله عدد من الشيوخ ذوي العمائم البيضاء و اللحى المسترسلة و بعض الشبان ذوي السراويل الواسعة أو البذلات الأوروبية , و بعض النساء بثيابهن الحريرية الفضفاضة الزاهية الألوان و المناديل البيضاء الشفافة و صفوف الذهب المكدسة فوق الجبين و الصدغين و هن يستندن إلى سلال الفواكه و الخضار و الصناديق الصغيرة و الأكياس المختلفة الحجوم . . . أحس بشيء من الذهول و لكنه تشجع عندما تقدم شيخ من كوة خشبية صغيرة و دفع بعض المال إلى رجل سمين يلبس الطربوش و يطل برأسه بين فترة و أخرى من تلك الكوة و هو يوزع أوامره و تعليماته على الحمالين و الركاب و المعاونين .

تطلع الرجل السمين ذو الطربوش الأحمر إلى هذا الشبح الغريب الذي يتقدم منه و تضاربت في رأسه شتى الأفكار و الصور و تمتم و هو يمد بيده ليقبض الأجرة و يسجل الأسماء :

اسمك ؟

- حمد بن عباس ذياب من السويداء .

و رنت في أذن الرجل كلمة بن بلهجة مغربية , و كادت يده تتجمد في الهواء و لكنه ما عتم أن تناول المال و دفع به في فتحة صندوق أمامه و أعاد بعض القطع الفضية و النحاسية إلى الشبح الذي بدأ يستدير ليتخذ له مقعدا» في الباص .

جلس واجما» و هو يشد بكفه الناحلة على عصاه القصيرة الشديدة اللمعان و قد شد باليد الأخرى على أشيائه القليلة الجاثمة فوق ركبتيه المضمومتين .

و صعد السائق إلى مقعده , و راح المعاون يصرخ :

- يللا يا جماعة ... ياللا يا شباب ...

و تسارع الذين كانوا لا يزالون في الباحة و بدأت جلبة واضحة , و بعض التزاحم على المقاعد و ارتفع صراخ طفل و صوت امرأة تريد أن تتأكد من وجود سلتها في مكان أمين على السطح .

و بدأ المحرك يهدر و أخذ المعاون يربط الحبال فوق سطح السيارة الضخمة و عندما بدأت العجلات تتحرك ببطء كان الشاب الصغير قد قفز إلى الأرض يفتح الطريق أمام السائق ثم قفز من جديد إلى الباب الخلفي يفتحه بخفة و رشاقة و يسند ظهره إلى المقعد الطويل المتقلقل .

كان باب الجابية كعادته بل أكثر يعج بالناس على اختلاف أزيائهم و لهجاتهم و كانت الأسواق حول الساحة مسقوفة مظلمة تتدلى من دكاكينها الخشبية الصغيرة المتلاصقة المناخل و الاحذية و الجلود و ترتفع في جنباتها أصوات مطارق النحاسين في جلبة أجراس العيد .

هذه هي السنانيّة لم تتغير , و هذا باب المصلى و هذه بوابة الميدان على حالها كأن لبنة واحدة فيها لم تتبدل و كأن مشربية واحدة فيها لم ترمم .

و تابع بعينيه المناظر التي بدت و كأنها تتحرك حوله ...

هناك مطار المزة الذي كان مسرحا» لتسلل الثوار و المغامرين , و هنالك قرى الغوطة الشرقية التي كان يعرف بساتينها و أحواشها و دروبها شبرا» شبرا» ,

إنها تختفي خلف غابات الزيتون و المشمش و الجوز و أشجار الحور الممشوقة , إلا أن ذكرياتها كانت تقفز في ذهنه نابضة بالحياة كأنه يحياها الآن .

و راح يتذكر رفاق الأمس . . . سقط الكثيرون منهم في ساحات الشرف و وقع الكثيرون أسرى و جرحى و ها هو الآن يعود حيا» لا يدري من بقي منهم على قيد الحياة , و لا يعلم من سيتيح له القدر أن يتسامر و إياه , عن تلك المعارك الرهيبة المتلاحقة التي شهدتها الغوطة و التي لا تزال مجال اعتزازها و فخرها .

و بدأت الشمس تختفي خلف جبل الشيخ , و هي توشي الغيوم بخيوط من ذهب و أرجوان و تنعكس على قمم لا تزال تلتفع ببقايا الثلوج , و بدأت أضواء السيارة تشع فوق الطريق الطويل الأملس , و بدأت تلتمع في جانبيه بين الفترة و الفترة عيون الوحوش التي كان بعضها يسرع في الاختفاء بين حقول القمح الشاسعة في حين يظل بعضها واقفا» و كأنه يتحدى أو يتفرس في ذلك الوحش الغريب الضخم الهادر .

شعر بالبرد فارتجفت مفاصله كأنما عاودته البرداء , فراح يتحامل على نفسه في جهد ظاهر -- و تطلع إليه جاره بشيء من الإشفاق فأحكم إغلاق النافذة و هو يتمتم بصوت مسموع :

- مبسوط خواجه ؟ . . .

كان الرجل يظنه من بعض الأرمن النحاسين الذين يترددون على الجبل و حاول أن يغريه بالذهاب إلى قريته حيث الزبائن كثيرون و حيث لا يتردد إلا بعض المبيضين المبتدئين , إلا أن الرجل لم يسمع أي جواب فلاذ بالصمت من جديد .

و لاح من بعيد ضوء أحمر , و عامود يسد الطريق ثم لوحة مستديرة كتب عليها بالعربية و الإنجليزية , قف , و خرج من المخفر جنديان بقي أحدهما في الأرض و صعد الثاني بقبعته الحمراء إلى السيارة :

- هويات . . .

و بدأ العريف يتفرس في الوجوه و هو يتفحص الهويات , واحدة واحدة في سكوت مطبق يتخلله أحيانا» بعض الجدل لا يلبث العريف أن يقطعه بنبرة

جافة متوعدة أو مؤنبة , و توقف طويلا» إلى جانب حمد , ينقل نظراته التي بدت حادة قاسية بين الوجه الشاحب الغريب , و رزمة الأوراق المقدمة إليه مختلفة الحجوم و الألوان و اللغات .

و لاحظ الشرطي أن أبصار المسافرين جميعا» قد تسمرت في وجهه العابس , و أنها ترتقي منه أن يكشف هذا الشبح الغريب الذي بدا لهم لغزا» تزيده تلك الرزمة من الأوراق تعقيدا» و إحراجا» .

و لم يجد العريف على ما يظهر حلا سوى استدعائه إلى المخفر , فأشار بيده إشارة خاطفة أن اتبعني و سار أمامه و هو لا يزال يحملق في رزمة الأوراق بين يديه .

- اسمك ؟

- حمد بن عبّاس ذياب من السويداء . . . حكمني الفرنساوي بالأشغال الشاقة عشرين سنة . . . و صدر عفو و عدت إلى بلدي . . .

لم يكن رئيس المخفر بطبعه سهل التصديق , و خاصة في تعامله مع مناطق الحدود , فقد كانت الريبة و الشك و الحذر هي الأصل في نظرته إلى الأشياء و الأشخاص و مع ذلك فقد أحس نحو الرجل العجوز المرتجف بشيء من الإشفاق , فقدم إليه قدحا» من الشاي أعاد إلى ذاكرة حمد أقداح البابونج التي كانت تقدمها له أمه كلما أحس بالبرد . . .

و لم يحاول رئيس المخفر أن يستمع إلى أي تفصيل و إن أغراه الفضول فقد أدرك أن المكان و الزمان و الباص الكبير الجاثم أمامه لا تسمح بالحديث المستفيض . . .

و فتح الحاجز , و عادت السيارة الكبيرة تهدر من جديد في السهول التي يغلفها الظلام رغم النجوم التي كانت تلمع في السماء بصفاء غريب .

كانت تلوح على جوانب الطريق أحيانا» أضواء خافتة بعيدة أو قريبة لقرية لم يكن يبدو منها غير شبح أشد اسودادا» من الليل الذي يغلفها , و لم يكن يسمع في جنباتها غير عواء الكلاب و بنات آوى .

قرية واحدة كانت تنيرها الكهرباء و يجتازها خط حديدي و ترتفع فيها أعمدة الأسلاك الشائكة لتحمي بعض المنشآت العسكرية .

لم ينزل أحد من السيارة حتى الآن إلا أن بعض المسافرين أخذوا يستعدون للنزول فأحس حمد بأنه يقترب من منطقة الجبل من مسقط رأسه , من ذكريات طفولته و شبابه , من ميدان جهاده , من رفاق السلاح , من الأم التي ظلت تنتظره بإيمان القديسين اثنين و عشرين عاما» . . .

و بدأت السيارة بين الحين والحين تتوقف لينزل منها بعض المسافرين يحملون أولادهم و أمتعتهم و سلالهم على أكتافهم أو ظهورهم و يدلفون بصمت رهيب نحو القرى التي كانت تلتمع فيها بعض الأضواء الباهتة الصفراء في إطار من ظلام الليل الموحش و التلال الصخرية المخيفة فتزداد بعدا» و تزداد كآبة .

و في الأفق العالي بدأت تتراقص مجموعة من الأضواء أشبه ما تكون بالنجوم المتناثرة و المتقاربة , إنها السويداء . . . . .

- آه ما أجملها ! ما أروعها . . . !

لم يكن حمد يعتقد أنه سيراها بهذا البريق المتلألئ و يبدو أنها قد أصبحت مدينة صغيرة في غيابه .

و شعر حمد بأنه يتعرف إلى المناطق المحيطة به رغم الظلام : هذه هي رقة الصخر على يمينه حيث أجهز على بقية حملة ميشو , و هذه هي السجن , و المزرعة , و هذه هي الطريق المصعدة بين كروم السويداء و حقولها . . .

و عندما أقبل على المدينة ذات الأضواء البراقة لم يصدق بادئ الأمر أنه يقبل على مسقط رأسه فإن هذه الأبنية الحديثة الملونة الجميلة , و هذه الأضواء و الشوارع المعبدة في هذه البقعة النائية عن البلدة ليست من السويداء التي يعرفها . . .

و فجأة انقطع تيار ذكرياته و تأملاته عندما توقفت السيارة التي لم يبق من ركابها إلا القلائل أمام حاجز خشبي تقدم من خلفه شرطي يهتف بصوت عال حاد كأنما يحاول أن يوقظ من توهم أنه نائم :

- هويات . . .

و مـن جديـد قـدم حمـد أوراقـه , و مـن جديـد راح الشرطـي يتفـرس في وجهـه و يحملـق في الأوراق الممـدودة إليـه , و لكنـه سرعـان مـا أعادهـا إلى صاحبهـا كأنـه يتهـرب مـن مجابهـة هـذا اللغـز و يلقـي تبعتـه عـلى المخافـر الأخـرى التـي مـر بهـا .

و في السـاحة العامـة توقفـت السـيارة إلى جانـب مثيلـة لهـا و تراكـض حولهـا صبيـان صغـار و كبـار و هـم يتدافعـون و يتصارخـون و قـد بـدت ثيابهـم مهلهلـة و نعالهـم باليـة مرقعـة , و شـعورهم مشـعثة مسترسـلة . . . و تقـدم بعضهـم مـن (الخواجـة) الغريـب و هـم يحلمـون بصناديـق و أمتعـة تكفيهـم جميعـا» إلا أنهـم سرعـان مـا ابتعـدوا عنـه و هـم يركضـون نحـو زبـون آخـر , عندمـا نـزل الشـبح الشـاحب الصامـت و هـو يحمـل تحـت إبطـه رزمـة صغـيرة و في يـده عصـا سـوداء تلمـع في الأضـواء لمعانـا» لم يألفـوه .

* * *

كان الحـارس يتجـول في السـاحة , فتقـدم يتفـرس مـن بعيـد في وجـه حمـد و يتفحـص الأشـياء التـي يتأبطهـا , و عندمـا سـار حمـد باتجـاه حـي المشـنقة , سـمع صفـرة عاليـة مـن موقـف السـيارات انطلقـت عـلى إثرهـا صفـرة خافتـة بعيـدة , و تابـع دون أن يسـأل أحـدا» فقـد كان عـلى يقـين مـن أن السـويداء القديمـة لم يحـدث فيهـا أي تغيـير يحـول دون وصولـه إلى البيـت وحيـدا» بـلا دليـل .

و عندمـا اجتـاز حـيّ المشـنقة في اتجـاه الزقـاق الطويـل الموصـل إلى مطـخ قـصر نجمـه , فوجـئ بشـارع طويـل مسـتقيم تغطيـه الحجـارة المرصوفـة رصفـا حديثـا» و قـد تراكمـت عـلى جانبيـه بقايـا الأبنيـة و العـلالي التـي هدمهـا الشـارع الحديـث . و مـع ذلـك فقـد سـار في ذلـك الشـارع يتذكـر بعـض الأبنيـة فيـه و بعـض الأزقـة المفضيـة إليـه , لا يكلـم أحـدا مـن المـارة و لا يكلمـه أحـد و إن أحـس هـو في أعماقـه بـأن نظـرات الريبـة و الاسـتغراب كانـت تشـيعه , و إن هـو لاحـظ أن حـارس الحـي يتبعـه مـن بعيـد بكثـير مـن الاهتـمام و القلـق . . .

و توقـف أمـام بعـض البوابـات عـلى يسـار الشـارع إلا أنـه مـا عتـم أن أبتعـد عنهـا و هـو يتفحـص بوابـات الخشـب و التوتيـاء و يرفـع رأسـه الأشـيب إلى الأعـلى بـين الفـترة و الفـترة .

و توقـف أمـام بوابـة خشـبية متهالكـة ترتفـع خلفهـا أغصـان شـجرة تـوت عاليـة لأوراقهـا الفتيـة حفيـف ناعـم .

و أحـس حمـد بالـدم يتدفـق إلى رأسـه و برجفـة تهـز ركبتيـه هـزا متلاحقـا» و سـمع دقـات قلبـه تتواثـب بـلا انتظـام , و عندمـا رفـع عصـاه يقـرع بهـا البـاب قرعـا» رفيقـا» كانـت يـده ترتجـف و العـرق البـارد يتصبـب مـن جبينه .

و لاح نـور قنديـل خافـت في الباحـة و تقدمـت خطـوات بطيئـة متثاقلـة و انتقـل في الظـلام صـوت متهـدم حاولـت صاحبتـه أن تودعـه شـيئا» مـن الثقـة بالنفـس و إن بـدت في ثنايـاه نـبرات مـن الخـوف و الـتردد.

و عندمـا صرت البوابـة وهـي تفتتـح ببـطء و حـذر كان حمـد يرتمـي في عنـاق صامـت عـلى الوجـه المغضـن الملتفـع بمنديـل أبيض سـميك .

الخاتمة

غصت دار عباس ذياب بالناس , شيوخ , و شباب , و نسوة حتى الأولاد كانوا يتجمعون فوق السطوح المطلة أو يمدون رؤوسهم الصغيرة من خلال البوابة و هم يتهامسون أو يتدافعون , و فاحت رائحة القهوة و الهال و ترددت أصداء المهباج الطروب في الحي الذي بدا في شبه عيد أو مهرجان و أشعلت نيران الزينة فوق السطح و راح الشباب يهزجون في أضوائها المتراقصة الخافتة حينا و اللاهبة أحيانا و هم يرددون على ألحان المجوز و الشبابة .

عالمزرعة يا شبابي تانلاقي حمد ذيابي

كان حمد يبدو نشيطا» مرحا» يوزع ابتسامته مع فناجين القهوة المرة , يرد على أسئلة الجميع و يحدث الجميع بكل بشاشة و انطلاق , و إن توقف بعض الأحيان يفتش عن الكلمة المناسبة و إن كانت بعض عباراته مزيجا» من اللهجة المغربية المشوبة بالفرنسية الركيكة .

و كان يستمع بشغف و شوق إلى أحاديث رفاقه القدامى عن الثورة و ما بعد الثورة عن الكفاح المستمر العنيد في سبيل الوحدة و الاستقلال و عن معاهدة ١٩٣٦ و عن عودة المجاهدين من الصحراء بعد إثني عشر عاما» من الغياب و عن الحرب العالمية الثانية و معارك ١٩٤٥ الرائعة , البطولية التي أدت إلى الجلاء . . .

و كانت النسوة يحدثن أم حمود عن ضرورة زواج حمد , يجب أن يكون له من يهتم به , بأكله، بغسيل ثيابه , بترتيب بيته , و أن يكون له ولد تقر عينيه به بعد الشقاء الطويل , ربك كريم يا أم حمود ! . . .

تذكرت أم حمود العروس التي انتظرت حمد عامين كاملين و تذكرت أنها شاهدتها في السنة الماضية في (البلخي) مع ابنة لها في الخامسة عشرة من العمر , و أنها سلمت عليها , و تذكرت بسمة استخفاف كانت تبدو على شفتي الصبية الصغيرة عندما كانت العجوز تتلمس ضريح الولي تبلل جنباته بالدموع و تغمرها بالقبلات المحرقة و هي تردد :

- يا بلخي . . . لك مني كبش إن رجع حمد , لك مني أزورك حافية يا بلخي . . .

و لم يتردد حمد عندما عرضت عليه العجوز فكرة الزواج , بل خيل إليها أنه كان يرغب بذلك فهو لا يزال رجلا» و لن يسمح للناس أن يتهامسوا بأن المنافي قد أفقدته شيئا» من رجولته , و هو يتشوق لأن يكون له ولد بل أولاد .

كان يعرف جيدا» بأنه فقير , بل معدم و أن المئة و الأربعين ليرة سورية التي قدمها له بعض الشباب هدية قد نفدت و مع ذلك فهو يشعر بأنه رجل لا يزال قادرا» على العمل , رغم كل شيء و أنه يستطيع أن يكون رب عائلة مثل كل الناس . و هو يشعر أيضا» بأنه يجب أن لا يكون هدفا» لشماتة أولئك الذين أوقعوه في الأسر .

و بذلت بعض المساعي من أجل تأمين وظيفة للرجل , و بعد إلحاح من رفاق الجهاد , وجد بين المتنفذين في الدولة من استطاع أن يؤمن له وظيفة آذن . . . وظيفة فراش . . .

* * *

و ذات يوم وقف حمد وقفته العسكرية المعتادة أمام رئيسه الجديد , اليدان مشدودتان إلى الجانبين و القدمان بشكل سبعة , سلم بصوت واضح و إن يكن متهدجا» إلا أنه لم يسمع جوابا» بل همسة خافتة , ثم دمدمة عالية :

- اسمع . . . أنا لا أقبل الكسالى في الوظيفة .

لا أقبل أن تتأخر دقيقة واحدة عن العمل . . .

و بهت حمد و ارتجفت ركبتاه , و ازداد لونه شحوبا و تمتم . . .

- سيدي . . . أرجوك . . . كل الليل و أنا سهران على زوجتي و هي تلد بشروني بغلام و مع ذلك جئت إلى الدائرة قبل أن أراه . . .

و سمع حمد أو خيل إليه أنه يسمع :

- أولاد ! . . . و في مثل هذه السن ! . . . و في مثل هذه الحالة ! ؟ . . .

ثم ارتفع الصوت حادا» جافا» , و امتدت اليد بإشارة حانقة نحو سلة فارغة في زاوية المكتب :

- بسرعة . . . الأغراض عند السمان . . . و الست دوختنا بالتلفونات . . .

جر حمد ساقيه المرتجفتين نحو السلة جرا» و انحنى يحملها كأنه يرفع صخرة و تراجع نحو الباب يحاول أن يحيي رئيسه . . .

و في منتصف الشارع توقف بلا شعور يشعل سيكارة ثم ينطلق في جهد ظاهر مكابر و هو يتمتم :

- معليش يا حمد . . . آذن . . . عتال . . . لاباس . . . عندك عجوز . . .

و صار عندك صابر . . .